الضفة الثالثة



لنهر الأردن

حسين البرغوثي

الضفة الثالثة لنهر الأردن

الضفة الثالثة لنهر الأردن

حسين جميل البرغوثي

الضفة الثالثة لنهر الأردن

رواية

حسين البرغوثي

الطبعة الثانية (2006)

الطبعة الأولى (1984)

الإشراف والتنفيذ :

بيت الشعر الفلسطيني

رام الله – فلسطين

هاتف: 2406956-2406957

فاكس: 2406955

E-mail: ping@ping-palestine.org
Web: www.ping-palestine.org

بالتعاون مع

دارالماجد – رام الله ، هاتف: 2989475 2 970+

بريد الكتروني: majedpress@hotmail.com

شكر وتقدير

شكراً لمن ساهموا في هذه الرواية بحياتهم ومأساة وجودهم قبل كلِّ شيء . للشعب الهنغاري الطيِّب الذي احتمل المئات من هؤلاء الضائعين ، وللفتاة الصينية التي صمَّمت لوحة الغلاف ، لعبد الكريم سمارة ومحمد مسعد وعادل سمارة ونضال أمير طه . . . هؤلاء ساهموا بالسهر والنقد طوال سنوات كتابة هذه الرواية .
هذا اعتراف ناقص مثله مثل بقية الاعترافات . . .

حبيبتي دانا!

سوف أخرج من هذه المدينة في هذه الليلة . سأتركها للمصابيح الصفراء في الشوارع الخالية إلاّ من صناديق القمامة والقطط السائبة فوق الأرصفة . سوف أتركها خارجاً عبر أزقَّة الضواحي المظلمة حيث تخاف الفتاة من الاغتصاب .

سوف أتركها ممتطياً حصاناً صغيراً ذاهباً نحو الأودية العميقة والأشجار المظلمة . سوف أصنع الشاي على النيران البريَّة تحت النجوم وأشرب الشاي وحيداً ، وأعانق عنق الحصان المبلَّلة بالعرق وفي داخلي رغبة في البكاء وفوق وجهي تلمع نيران غريبة . من زوَّادتي الجلدية سوف أخرج طفلاً ولد ميتاً وأعلِّقه على غصن زيتونة حتى تتراقص النيران كالأشباح حوله . عندها حتماً سيصهل الحصان ويجلس حتى أحدِّثه عن الحريَّة .

سوف أخرج من هذه المدينة في هذه الليلة عابراً آخر محطة لسكة الحديد . لا أملك إلاّ يديّ ، سوف أجرُّهما ورائي مثلما يجرُّ الضبع امرأة من ثياب نومها وشعرها

الأصفر يتدلّى خلفها ، عابراً صحراء جليد تضيء طريقي فيها أشعة الغروب الحمراء . سأركض على أربع بين الذئاب القطبية الجائعة وأبحث عن فريسة أو مسافر تائهٍ . سوف أنكر أمّي وأبي عندما يقفان بعيداً في ظلمة اليأس يناديان عليَّ . سوف أخرج من هذه المدينة وسأحاول أن أكون وحيداً في هذه اللحظة مثلما كنت وحيداً قبلها ، لن أحمل كتبي ولا ذكرياتي ولن أودّع أصدقائي ، سأكون وحيداً وأحاول أن أحيا كذلك . سوف أبحث عن ليلة خضراء ونجوم برتقالية .

وداعاً يا حبيبتي !

وداعاً يا حبيبتي النائمة بهدوء الناي وبراءة الملائكة ، سوف أكسر غصناً من كلّ شجرة بريَّة أمرُّ عليها وأضع حجراً عند كلّ مفترق طرق . هذا إذا فكَّرتِ يوماً بالقدوم إليّ . ولكن إذا خاننا الزمن وتزوَّجتِ شخصاً آخر اصنعي فنجان قهوة وضعيه قرب سريري ، سوف تعود روحي وترفرف عليه في شكل فراشة بيضاء . لا تطرديها ولا تغلقي الباب ! هذي وصيتي الأخيرة قبل أن أخرج من هذه المدينة عندما يخرج القمر بالضبط .

وراء هاتيك التلال سأترك خطوتين صداهما سيظل يرنُّ
في أذنيك ولو بعد عشرين سنة : عندما تكونين وحيدة
في مثل هذه الليلة القمرية .
لو كنتُ في كفيك شلالاً شتائياً يضيعُ ضجيجهُ بين
الرطوبة داخلَ الأدغال !
بئراً قديماً فيه صوتُ الماء سرٌّ ليس يدركهُ أحد إلاّ البروقُ
وظلمةُ الأجيال ! لرغبتُ في كفيكِ أن أبقى جماداً
للأبدْ!
لو كنتُ وادياً مقمراً مثلَ الحقيقة والتلال
وجهاً بدائياً وأحلاماً بغير نقط !
وتشعلُ فيه ناراً غيبةُ الأطفال
أو طفلٌ فقط !
لرغبتُ في كفيك أن أبقى غريباً للأبدْ !
كالغابة الزرقاء والوجعِ البعيدْ
أبقى غريباً للأبَدْ !

سوف أخرج من هذه المدينة في هذه الليلة . سوف أترك
امرأة تعلّق طفلة مجهضة في كيس من النايلون على

أحد مصابيح النيون في مفرق الطرق وتهرب قبل
مجيء الجنود والكلاب جماعات تعبر بين الفينة
والأخرى .
سأترك الدوريات العسكرية تسرع من زقاق لزقاق
وتطارد أشباحاً من العالم السفلي في القدس والمدن
الخائفة . سوف أتركها وأواصل السير على شاطئ بحر
مظلم حيث تتمدَّد الريح فوق الصخور كالفقمات الميتة
والقدر غامض والطرق مأساوية .
سوف أصل إلى غابة زرقاء مسيَّجة بأسلاك شائكة
وكلاب صغيرة وبيضاء تعوي علي . سوف أدخلها
وأبحث عنك يا دانا ! . سأرى نبعاً نائماً ويبقبق وحيداً
بين الحصى فأسأله أين دانا ؟ ويواصل نومه وبقبقته
بهدوء . وعبر الأشجار الغامضة الزرقاء سأسمع
الحوريات يغنين غناء غريباً وحاداً يخرج مثل نافورة
فسفور وأرى الشفق وراء القمم البعيدة . سوف تأتي
حورية عارية وتأخذني لكي أتعرَّى وأعانقها في لحظات
الشهوة تحت أشجار شفقية . سوف أخرج من هذه
المدينة في هذه الليلة . سأترك النائحات سنة ألف

وتسعمائة وسبع وستين يلبسن أثواب الحداد السوداء ويرقصن رقصاً دائرياً ، ويلطمن فوق وجوههنَّ وصدورهنَّ في ساحات القرية القمرية . سأقفز مثل الديك وأركض في الجنائن هارباً من ذنبي وأشارك النائحات طقوسهنَّ البدائية :

«يا شامري هالشمره
في ضو ليل وقمره
قولي لأختي عمره
أخوك عميره مات!»

سوف أخرج من هذه المدينة في هذه الليلة ثمَّ أدخل بيروت . أثناء الحرب الأخيرة قرَّرت الانتحار ؛ لأنَّ الحياة لا تساوي ما نتحمَّله حتى نعيشها . تجوَّلت في شوارعها الخطرة وحيداً ويداي في جيبي . في منتصف الليل تقريباً وصلت إلى شارع تئزُّ فيه مصابيح النيون مثل الصراصير ، شارع مهجور ، عريض ، نصف مدمَّر ، وأشباح من العالم السفلي والحرب تعبره . واصلت السير وشيء يهمس لي أنَّ النهاية صارت قريبة . أين ستأتي الرصاصة ؟

في الرأس في القدمين أم في البطن ؟ لا أدري لماذا أردت رؤية القنّاص الذي سيقتلني ، رؤية عينيه بالذات . وفجأة خرج من أحد الأزقة رجل ملابسه مهندمة وشعره ممشّط بعناية ويحمل فنجانين من القهوة الساخنة على صينية في يديه . سألني : «هل تستطيع شرب القهوة معي؟» . وجلسنا على الرصيف وأشعلنا سيجارتين . سألته : من أنت ؟ فقال : «أنا لا أحد! قادم من لا مكان! أبحث عمّن يشرب القهوة في الليل معي!» . وحدّق في قهوته بصمت القبور . وفجأة جاء من الخلف صدى خطوات عسكرية ، صدى دقيق ، متزن ، ومنتظم . ضابطان كتائبيان يقتربان منّا . سألوه : من أين يعرفني؟ فقال : «لا أعرفه! دعوني بسلام! أبحث عمّن يشرب القهوة معي!» . ونظر للشبابيك المحروقة في الأعلى وتنهّد . شعرت أننا سنموت معاً نتيجة لوقاحته . وحنين جارف مثل البحر في حيفا تفجّر في داخلي للحياة . كانت القهوة ساخنة وشبه مرّة إلى حدّ الرغبة في العيش ولو ليوم واحد فقط ، لأشرب فنجان قهوة آخر . ومضى

الضابطان في طريقهما بعد أسئلة روتينية تأكدوا فيها بأنَّني لا أعرف القدس القديمة . من يومها وأنا أشرب فنجان قهوة ساخنة كلَّما سنحت لي الفرصة . سوف أذهب إلى فندق في الأشرفية بعدها . سوف أصعد سلماً لا لون ولا طعم ولا رائحة لـه . سأصل إلى سبعة مقاعد في وسط صالة مضاءة برجُل وحيد ينسج الصوف هناك . سأقف لخمس دقائق وهو يحدِّق في يديه . وفجأة سيقول : «من؟ نم هناك!» . سأنام مردِّداً بعض الطقوس القمرية :

«يا شامري هالشمره

في ضو ليل وقمره

قولي لأختي عمره

أخوك عميره مات!» .

سوف يستيقظ شخص مدفون في تابوت سريره ويهمس بحذر : «لهجتك فلسطينية! غيِّرها!» ويدفن نفسه من جديد .

سأنام في بيت من الإسمنت المسلَّح في تلك الليلة .

ويدقُّ الباب رجل غريب كان يأتي إلى بيتنا في الطفولة . لحيته كثَّة ورمادية ومعطفه طويل ورمادي . لا اسم ولا عائلة لـه ولهذا كنت أسمِّيه الرجل الرمادي . كان يأتي إلى بيتنا فلا يتكلَّم معه أحد . يأتي متى يشاء ويذهب متى يشاء . يقولون بأنَّه كان قريباً بعيداً لأمي . عيناه خضراوان ويمصُّ قطعة صمت صفراء في فمه . جلس بقرب موقد النار ذات مساء وحدَّق في الجمر الملتهب مثل مدينة خرافية ليست على الخارطة وهو يغني أغنية هنغارية :

«توجدُ مدينة!

مدينةٌ بعيدةٌ ليستْ على الخارطة!

لا تسلني أينَ ولكن

تعالَ معي!

فيها البيوتُ من النحاس !

فيها النَّاس نائمونُ والبيوتُ حالمة

والساحاتُ الوحيدةُ مضاءةٌ بأضواءَ خاصَّة !

توجد مدينة !» .

ومصَّ قطعة صمته الصفراء وذوَّب منها بعض الكلمات : «هل تصدِّقني لو رويت لك حكاية مهما كانت لا منطقية ؟» . كنت صغيراً وأصدِّق كلَّ شيء فقال بلحيته الرمادية : «في أسفل القرية توجد مقبرة صغيرة يا ولدي . كثيراً ما أحدِّق فيها من شبَّاك غرفتي في الليالي القمرية . في غرفتي إبريق شاي وطاولة خشبية ودزينة كاسات . أضع الشاي وأصبُّه في الكاسات طبعاً . أقول لزوجتي : اشربي ! اشربي يا حبيبتي ! اشربي ! لماذا لا تشربين ؟ لأنني أنا الذي صنعت الشاي؟ طيب ! اشربوا يا أولاد ! اشربوا ! لكن لا يشرب أحد بالطبع فأنا أعيش وحيداً بلا أولاد ولا زوجة . أجرع الكاسات وحدي وأنا أحدِّق في المقبرة المقمرة .

كلُّ صباح أذهب إلى قهوة مليئة بالكراسي فأسحب كرسياً وأحدِّق في الجبال المجاورة . جبال جرداء مغطَّاة بتلال بيضاء . أجلس كالتمثال بلا حراك حتى المساء . في البداية لم يكن ينتبه إليَّ أحد ولكن فيما بعد صاروا يلقون عليَّ بأعقاب السجائر وقشور البرتقال ويضحكون .

أحياناً يسكبون على رأسي قنينة كولا ويكون الصخب في قمته ولا أتحرَّك مهما حدث . ولكن عندما يخرج القمر بالضبط وراء الجبال ، أرى قطيعاً من الذئاب يعوي ويركض مثل قطيع من الظلال في الأودية . يتشنَّج جسمي وأبدأ في العواء .

ليس عواء عادياً من الفم ، بل عواء عميقاً من المعدة والقدمين والعنق والشعر . جسمي كلُّه يتحولّ إلى عواء مثلما تتحولّ المادة إلى طاقة . وأندفع كالمجنون نحو الجبال المجاورة وأنا أعوي . أعوي على الناس والطرقات والقمر ، على الينابيع البريَّة والعصافير والشجر ، أعوي على كلِّ شيء . وأخيراً أستلقي وأنا ألهث من شدَّة التعب على التلال تحت النجوم . إنَّي أملك أربعة زيتونات هناك . أسهر على جذع زيتونة رومانية ، تلك التي تقع بقرب النبع ، ليس نبعاً كبيراً ، بل صغيراً جداً وينساب بهدوء فوق صخرة ملساء وطويلة .

أحياناً أتخيَّل تلك الزيتونة وهي راقدة بقرب النبع مشروعاً لعالم آخر لم نزل نبحث عنه ، إنَّها شيخ يلبس

عباءة بيضاء ويجلس وحيداً منذ الأزل في سفح الجبل .
هذه الزيتونة يا ولدي مقدَّسة وتحوَّلت منذ زمان بعيد
إلى جزء من تراث قريتنا وعجائزها .
أغيب ستة أشهر في تلك الجبال القمرية المحيطة
بالزيتونة . أبحث دائماً عن الرجل ذي العباءة البيضاء .
منذ عشرين سنة وأنا أبحث عنه . أنت لا تعرفه يا
ولدي! عندما كنت صغيراً ، ربَّما أصغر منك يا
ولدي ، ضعت في تلك الجبال . كانت الليلة مقمرة ،
أيضاً . جلست على تلَّة بيضاء وأخذت أبكي . وفجأة
سمعت عواء ذئاب يقترب شيئاً فشيئاً . هربت ولكنني
كنت صغيراً ولم أستطع الذهاب لأبعد من كهف كان
تحت التلَّة فاختبأت فيه . واقترب العواء شيئاً فشيئاً حتى
وصل باب الكهف فدخل الذئب الأول فاغراً فمه وأنا
أبكي وأصرخ وأرتجف : «يابا! يابا» . وفجأة انفتح
شبَّاك من النيران بين النجوم ومنه تدلَّى سلَّم من النيران
الخضراء لباب الكهف مباشرة ، وعلى هذا السلَّم نزل
الرجل ذو العباءة البيضاء التي تشبه أثواب القمر .
كان يلبس حذاء الضوء الأزرق ووجهه أخضر خضرة

داكنة . أخذني بين يديه وأعادني لقريتنا بخطوات واسعة ، كلُّ خطوة من رأس جبل لرأس جبل . وجدت الأطفال بباقات الزهور يستقبلونني والنساء يزغردن على سطوح المنازل . أمَّا قطيع الذئاب ، قطيع الذئاب فقد تحوَّل إلى قطيع من التماثيل الحجرية ، تستطيع حتى الآن أن تراها هناك . من يومها وأنا أسمع الذئاب تعوي في داخلي كلَّما سخروا منِّي في المقهى ، وعندما يخرج القمر بالضبط يرتفع العواء فأهرب للجبال المجاورة بحثاً عن الرجل ذي العباءة البيضاء . لعلَّه يسكن في أحد هذه النجوم التي تراها في الليل! لعلَّه يتجوَّل في طريق التبَّان وهو يفكِّر فينا جميعاً! ولعلَّه مجرَّد وهم في نفسي! لم أره أبداً بعدها ، لم أره أبداً ! . «ونزلت دمعتان صافيتان وكبيرتان من عينيه وهو يحدِّق في الجمر الملتهب تحت الرماد مثل مدينة ليست على الخارطة» .

حبيبتي دانا !

لقد افترقنا وسوف أسير في الحياة وحيداً وأحتفظ بالأسباب لنفسي . هذا مؤلم جداً بالطبع ولكن لا داعي للندم والبكاء يا دانا ! .

أواه ! أيتها الجميلة كانهيار الثلج عن قمم الجبال ،
حبيبتي ، هلاّ نظرت إلى السماء اللانهائية
ورأيت ضوءاً ما لنجم قد تحطَّم منذ أزمان بعيدة ؟
واليوم جاء فقط ، ليعلن أنَّه
لا شيء يبقى للأبد !
لا شيء يبقى للأبد !
هلاّ نظرت إلى شهاب كان مثل ذراع طفل باركته عيون أفروديت
جعل الحياة لقلبنا أجملْ
- قبيل سقوطه - وبقدر ما أمكن ؟
لعلَّك قد رأيت مثل عينيك !
جديراً بالحياة وبالتأمُّل مثل عينيك !
لعلَّك !
إيه أيتَّها الجميلة كانهيار الثلج عن قمم الجبال !

لسوف أخرج من المدينة القادمة في الليلة القادمة .
سوف أترك خلفي الطالبات بجدائلهنَّ السوداء يثرثرن
في ملعب التنس الأرضي تحت أشعة الشمس بملل ،

والأطفال يطيّرون بالوناتهم الملوَّنة في السماء، سوف أترك الفلاحات يزدحمن أمام بوابة سجن رام الله عند الزيارات، والآباء يعانقون أبناءهم وبناتهم عند لحظة الوداع، فقد صارت لكلٍّ واحد منهم حياته الخاصَّة وطريقته الخاصَّة ومأساته الخاصَّة وهم يدركون انفصال الطرق. سوف أترك الأزواج ينزلون عن بطون زوجاتهم في الليل وهم يشعرون بالعرق والقرف. سوف أترك على أحد بلكونات القدس سائحة شقراء تقف عارية تحت شمس في الطابق الثالث، وتحلم بجسد برونزي، فاتحة فخذيها للأشعة والعيون الجائعة. سوف أترك كلَّ شيء وأمضي نحو أحلام جنوبية. سوف أدخل ديراً بوذياً في إحدى مقاطعات الصين الوسطى. سوف أحمل دلوين من الماء على كتفي مربوطين على طرفي عود يابس وأسقي الزهور في المساء. ربَّما يحدث ذلك! من يدري يا دانا ماذا يخفي القدر للمشرَّدين؟

في الليل سأجلس جلسة خاصَّة مغمض العينين وأحاول أن لا أفكِّر في شيء حتى أصل لحالة «النيرفانا». لن أشعر

بالنقص هناك أمام الوحوش البرية وأشجار الشاي، هناك لن أشعر بالحب لشيء أو بالكره لشيء، وأحتقر أحداً ولا يحتقرني أحد، لا أقلق من حلم محبط أو بوليس سري، هناك لا أربح شيئاً ولا أخسر شيئاً، بل أتجوَّل بهدوء وسلام في دهاليز الدير البوذية.

سوف أغرق في بركة ماء في الشمال، سأغوص للقعر هناك بأحلامي وماضيَ وذكرياتي. لن ينقذني أحد ولا أريد أن ينقذني أحد! هذه ستكون النهاية مثلما يبدو.

سوف أذهب لحفلة كوكتيل في إحدى ضواحي المسيسبي. بيت من الزجاج في قمة هضبة خضراء. يتجمَّع المدعوون حول دائرة تلمع تحت أشعة الغروب الحمراء. فتاة صينية تلبس لباساً أزرق يبرز أودية جسمها وهضابه وعباءة زرقاء مثل الجناح. وتدقُّ الموسيقى السيمفونية لها حتى ترقص رقصة موت طائر البحر. طائر البحر يضرب بأجنحته السماء المشمسة الزرقاء ولا يبصر إلاّ زرقة اللانهاية. طائر البحر يعود للشاطئ مرهقاً ويصطدم بالصخور الحادة التي يغسلها

الزبد. وأخذتْ تتلَّوى في رعشات تشنجية على العشب الأخضر: طائر البحر يموت وضجيج الأمواج يرافقه حتى أبواب الأبدية! نظرت للوراء رأيت في أسفل الهضبة بحيرة زرقاء. يا ليتني مثل هذه البحيرة: هادئاً وعميقاً وأزرق! حولي تتجوَّل الفيلة وفيَّ تسبح الوعول بقرونها وفوقي تتصايح النسور البريَّة. ولكنَّني أبقى مثل هذه الجسد البشري وطائر البحر وخلفي جمال الطبيعة فليلتق الجمال بضفتيه! وجودي بينهما صوت نشاز يعكر عزف سيمفونية الكون على ما يبدو. وداعاً يا حبيبتي! يا ذات الشعر الأخضر! سأترك أجمل أحلامي لك في علبة خاصة فوق طاولة! سوف أتجوَّل على الرمال البحرية تحت الغيوم السوداء في بيروت. سأبصر عريشة مهجورة فوق صخور الشاطئ فأحمل وجهي وحقائبي للنوم فيها، سيجيء كلب أسود عميق النظرات، ووراءه شخص بملابس مهترئة وشبه عادية يكلَّمني بإنجليزية ضعيفة ثمَّ يشير علي بأن أتبعه. قادني نحو كهف في صخور الشاطئ، بابه مسدود بالإسمنت المسلح وفيه باب خشبي، هذا بحار

حتماً! قواربه وثيابه في الزاوية ولحيته خشنة مثل شباكه. صنع شاياً وقدَّمه لي . دخلت فتاة علينا ببنطلون كابوي كالح. في عينيه ورعشة يديه شعرت أنه يرغب في النوم عليها ويشعر بالضيق مني ، شهوته أقوى من إنسانية . سوف تدرك ذلك وتغني :
«لا كتايب ولا أحرار كلْ فلسطيني بنا نمحاه»
سوف أمتدح الأغنية وأسألها : «أغنية إنسانية ! من أين سمعت بها؟» «من الشمال. من بعلبك. ما فيَّ أغنيها هون. الفلسطينية مجرمين!» سأحدِّق في مطعم للسمك يطلُّ على البحر وأسألها : «هنالك لي صديق، متوسط الطول وشعره أشقر وشاربه عريض . يسمَّى غسان كنفاني. ألا يمرّ ليلاً من هنا ؟» سيجيب البحار بملل : «الشارع هذا دائماً مزدحم من أين نعرف صديقك ؟» ويقترح أن أبحث عن مكان للنوم فيه قبل هبوط الظلمة الكاملة ، سأتركه مع عاهرته وحقائبي وأصعد التلال البحرية نحو الشارع . سيهطل المطر بغزارة في منطقة الفنادق وأنا أسير بلا هدف . سوف أخرج من هذه المدينة من حيث يهدر البحر في اللَّيل

وتلمع بطون القرش بين الفينة والأخرى . سوف ترافقني ليلة باردة وعاهرة .

سوف أدخل نيويورك وأستريح في مكان يقدّم الخمرة في «الفورث أفينو» أمامي مسرحٍ خلفيّته من المرايا وعليه فتيات عاريات تهتز نهودهنّ مع الموسيقى لتسلية الزبائن المرهقين من السفر من الدخول والخروج ، حلمة النهد سمراء ونافرة للأعلى ، إنّه من «بورتوريكو» على ما يبدو . وأدخل مبغى ليلاً فأضاجع عاهرة تأكل من عرق فخذيها وتسألني بلسان ينضنض مثل لسان الأفعى من بين أرجلها : «من أين أنت ؟» وأجيب بكلّ تقوى : «من الأراضي المقدسة» .

وتجوّلت كثيراً في أزقة شيكاغو الرطبة حيث يسير بعض العابرين بوجوه منكمشة من برودة «ميشيغن ليك» ، سأدخل باراً فيه ترقص أشباح الزنوج القادمة من مزارع القطن . يتوقّف الرقص فجأة ويحدّق الجميع في الزائر الغريب .

سأخرج بشعري الملقى على كتفي ، أنا أبيض جداً بالنسبة لهم ، أبيض من كفن أبي وهو يتجوّل حول

بيتنا في الليالي القمرية ، سأنام وأغلق الغرفة جيداً حتى لا يقتلني مجرم في الليل وسأحلم أحلاماً غريبة في شيكاغو . سوف أحلم أنَّ الدنيا ثلوج وناطحات السحاب والشوارع بيضاء وأنا فوق إحدى الناطحات وسطحها ضيِّق ويغطيِّه الجليد . أمامي سطوح البقية مثل مدرَّج روماني مدفون في الثلوج ، أرتعب من هذا العلوِّ الشاهق وأتخيَّل نفسي ساقطاً ، إنَّ السقوط هنا رهيب ! أتشبَّث بالحافَّة وأدير وجهي وأحاول أن لا أفكَّر في شيء إلاّ أمامي .

فجأة أرى أخي الصغير يخرج على سطح إحدى الناطحات المجاورة وهو يرقص كعادته على رجل واحدة بمرح . أحاول أن أصرخ فيه ليرجع لكنَّني لا أستطيع . يصل الحافة ويسقط تحت عاصفة ثلجية فأراه مثل طير أخضر يلمع تحت أشعَّة الشمس ، تنكمش يداي على الحافَّة وأعوي : «فادي ! فادي ! لا تهبط إياك أن تهبط ! حاول يا حبيبي أن تطير !» ويختفي في العاصفة الثلجية وأحلم ، أيضاً ، بك يا دانا ! أحلم أنَّك تجلسين القرفصاء منكمشة بعينين واسعتين ويدين

نحيلتين وخائفة جداً . تقولين لي : «هنالك هضبة من الثلج يصعدها رجل أسود يقاوم العاصفة الثلجية . أسود ، أسود لا يظهر منه شيء ، إنَّه يصعد نحوي لكي يقتلني» . وتمتدُّ يداك النحيلتان نحوي للمساعدة ولكن عبثاً يا دانا ! .

لكلٍّ منَّا ناطحة سحابه الخاصَّة به ، وعليه إنقاذ نفسه أولاً حتى يساعد البقية . حاولي أنت ، أيضاً ، أن تطيري ! أمَّا أنا فسوف أطير مثل رفِّ حمائم بريَّة بيضاء في تلك السماء الزرقاء ، سماء الحريَّة النظيفة فوق البحر الأبيض المتوسط حيث تسطع الشمس بحرية ، وسأحاول الحصول على طعامي من الزبد في البعيد ، سوف أرى الجبال المبلَّلة تلمع بعد أن يصحو المطر تحت الأشعَّة .

مياه البرك الصغيرة ستكون صافية فوق الصخور ليشرب منها الرعاة أكاد الآن أبصر أحد هؤلاء الرعاة : عصاه على كتفيه ، يداه على طرفيها ! إنَّه يصفِّر للمخلوقات التي لا ترى بالعين المجرَّدة وهي تتدفأ تحت أشعة الشمس كما قال نيرودا ، لقطرات المطر تتساقط

عن الأعشاب الخضراء فوق القنافذ ، للحلزونات تتحرَّك ببطء معلَّقة بالصخور اللامعة في جبال فلسطين ، لخشيش النعاج بين الأشجار البريَّة ، ولكلِّ ما هو حي وطيِّب وحرٌّ تحت هذه السماء الصباحية الزرقاء .

سنلتقي هناك يا حبيبتي ! هناك حيث الينابيع لا تخان من أصواتها ، حيث يقف كلُّ شيء عارياً على حقيقته وجميلاً في الوقت نفسه ، حيث تتساقط الشلالات دون الإحساس بمأساة السقوط ، حيث يمكننا أن نتعانق لمرَّة واحدة ، للمرة الأولى ، بنقاء وإنسانية ودفء وحاولي أنتِ ، أيضاً ، أن تطيري !

وداعاً يا حبيبتي النائمة على جسر أصفر يربط بين جبال حمراء ، وتنتظر فارس أحلامها الأخضر الذي يركب حبة برتقالية «أرض البرتقال الحزين» وداعاً ! سأترك السهرات الخاصَّة حيث تلمع قناني الويسكي الفارغة والثرثرات المملَّة خلف الشبابيك المضاءة في الفيلات الخاصَّة ، سأترك النساء منزعجات لأنَّ المهندس فلان يرقص حيث تجلس سيّدة مهندمة في الزاوية وهي

تراقب ما يجري وتتمتم محتارة :

« وكمْ تمنيتُ لو للرقص تطلبني

وحيَّرتني ذراعي أين ألقيها !»

سأترك ألواح الصفيح تطير مع الظلمة والريح في «مخيم الشاطئ» فيستيقظ الأطفال مذعورين من نومهم ويتنفَّسون بعمق حريَّة البحر المالحة. سوف أخرج من هذه المدينة عابراً الحدود الشمالية زحفاً تحت الأسلاك الشائكة، عصاي وأمتعتي وبابوري فوق ظهري . ربَّما أعمل بحَّاراً بين بيروت واليونان :

« في قلبه سمكة

من ماء بحر الصين !

من الممكن أحياناً أن يراها

وهي تعبر في عينيه » .

على حدّ تعبير (لوركا) . سأحدّق في اللَّيل الممتزج بهدير البحر على ظهر السفن ، ستلوّح الريح شعري المجعَّد فيسافر وحيداً في فضاء بغير نجوم . سأترك

المدينة القادمة في الليلة القادمة عبر ضواحي المدينة الفقيرة حيث تخاف الفتيات من نباح الكلاب المشرَّدة وهي تحلم بالحريَّة .

سوف أقضي ليلة عيد الميلاد وحيداً في روما في بناية من عشرين طابقاً في غرفة (٩٤٨) جميع النزلاء يذهبون لعائلاتهم في العيد والبناية مغلقة ، جميع المدينة مغلقة . كلُّ شيء مغلق في الحقيقة . سأتجوَّل وحيداً في الممرَّات الطويل جداً . ممَّرات مفروشة بالسجاد الأحمر والرخام اللامع تحت أزيز النيون «إنَّ طيور النيون ترفرف بأجنحة من الزجاج على أغصان من الباطون المسلح» .

كلُّ باب أفتحه يطبق خلفي بصوت ، مثل صوت مخالب القطط فوق ألواح الصفيح ، حاد ، لا معقول ، ويثير الرعب والوحدة . سأحاول أن أستحمَّ فأدخل حمّامات في قاعات واسعة وفارغة ونظيفة الزوايا . خشخشة حبات الماء تكون كافية لكي أخرج خائفاً للمَّرات الفارغة من جديد . سأفتح التلفزيون الأبيض والأسود ، ألوانه قاتمة وتثير الكآبة ، سوف أرى فيلم

«التحميض» فيلم إنجليزي يتحدَّث عن حياة مصوّر
وحيد يلتقط الصور ويحمِّضها ، التقط صوراً كثيرة
لشاب وفتاة رآهما في حديقة عامة . حمَّض الصور
وجلس يتأملها في بيته في إحدى الصور كانت الفتاة
تعانق حبيبها ولكن عيناها جاحظتان وهي تبحث عن
مكان في الغابة ، استنتَجَ أنَّها تبحث عن مكان آمن تقتل
فيه صاحبها .

كانت الليلة مقمرة عندما خرج المصِّور للمكان نفسه ،
الريح تعصف فوق الغابة المقمرة وتلوِّح شعره بعنف .
يقطع مرجاً عشبياً صغيراً ويجد تحت الأغصان جثة
الرجل ملفوفة بغطاء أبيض ، يعود لبيته فيجد الصور
قد سرقت منه . تركت التلفزيون ورجعت لغرفتي ،
شيء منَ الرعب أخذ يستولي عليَّ ، رعب واضح ولا
معقول وشامل ، وأخذت أرتجف ، في ذهني منظر
واحد فقط :

الريح تعصف بالحديقة . ليلة قمرية

ميتاً وجدت . . .

وجدت ميتاً . . .

بيتنا بالصمت والعبثية

والضوء جلّلَ من جديد .

فوقَ السريرِ وجدتُ نفس الجثّة البيضاء !

تجلسُ كالذراع إذا تخدَّر !

وأنا وحيد !

حدَّقت في المرآة : معتوه تحجَّر !

صفارةّ الإسعاف تعوي في البعيد :

«موتي أموتُ وموتَ من يأتون بعدي !

حتى الحياة أدينها وحياة من يأتون بعدي !» .

وخرجت هارباً من الغرفة في الممَّرات الفارغة . في وسط الممر رأيت الجثة البيضاء نفسها مثل الطباشير ، شفتاها مثل الطباشير ، ووجهها جاف وأبيض مثل الطباشير ، التصقت بالجدار فاقتربت منِّي ببطء وعانقتني عناقاً بطيئاً وقوياً وفيه شيء من الدفء .

واستيقظت في الواحدة ليلاً على مقعد خشبي في حديقة عامَّة على شفة نهر الدانوب أضواء «بودابست» الخضراء والحمراء والصفراء والبرتقالية تنعكس فيه .

وجدت بلال بشعره الأسود المتجعِّد وشفتيه العريضتين يحدِّق في النهر بصمت ويجرع الفودكا. لم يرد أن يتحرَّك لئلا أستيقظ، فرأسي كان سكراناً وملقى على كتفيه «الدنيا برد جداً» قلت له وتطلَّعت حولي وأنا أتقلَّص وأفرك يدي من البرد. بعض البنايات الطويلة واقفة بلا مبالاة، شبابيكها مضاءة وفتاة عارية تغسل نهديها بيديها «فينتفض النهد كرأس القط من الغسل»، وتردُّ شعرها المبلول للوراء - بحركة سريعة من رأسها. حدَّق بلال في الشباك قائلاً: «ليس هذا هو البرد. ليس الصقيع في شمال أوروبا والمحيط المتجمِّد الشمالي هو البرد. البرد الحقيقي هو هذه وجذوره، أما أنت فمنبوذ في حديقة عامة، سكراناً ووحيداً». ونفخ سيجارته فخرج الدخان مكثفاً مثل دفقة غريبة من شهوات برتقالية سرعان ما اختفت في الضباب وقال:

«كنت صغيراً لمَّا خرجت من بيتنا في طولكرم. لم أودِّع أمِّي وأنا أحمل حقيبتين من الملابس تحت أشعة الشمس الصبحية... كأنَّني في نزهة. ماتت أمِّي بشلل نصفي

قبل أن نلتقي ثانية ! خرجت للجامعة في بغداد لدراسة الهندسة . كنا نشعل النيران ليلاً على شفة دجلة ونشوي السمك بين النخيل . هناك مناظر . . . » .
في مكان أمين فوق طاولة الذاكرة ، ملفوفة بالمخمل الأحمر في علبة من الذهب نعود إليها كلّما أفلسنا ونلمسها بحذر خائف ، هذا المنظر أحدها ووجه أمّي هو الثاني . تركت الجامعة بعدها والتحقت بالمقاومة الفلسطينية ، كنا نركض تحت حرّ الظهيرة في الصحراء ، عراة حتى الخصر ، الغبار والعرق وأجسادنا في صلابة النحاس ولمعانه من شدة التدريب ، هذا هو كلّ عالمنا ، نركض في أسراب طويلة ومرهقة ، فيها لا تحسّ أنّك تلبس حذاء ، بل كهفاً بأكمله وتسحبه وراءك ، هل تدري ؟ بالأمس كنت في أحد البارات جرعت الخمرة حتى صار كلّ شيء يدور ، من الأضواء والموسيقى وقاعة الرقص ورفوف المرايا في البار ، حتى نهود الفتيات تتأرجح تحت القمصان الشفافة ، كلّ شيء كان يدور ، من اليمين لليسار والأسفل ، وقعت من الغثيان على الأرض وأنا أبكي وأشدّ شعري .

الغريب أنني تذكَّرت ساعتها كيف كنا ندهن أجسادنا بالـ (د . د . ت)، حتى نقتل البقَّ ونحن في خيمة ما تحت شجرة بلوط في أحراش عجلون . نصطاد السمك بتفجير الماء عند الضرورة ، الماء قليل جداً وكنَّا نحضره على ظهر حمار من مسافة طويلة . حمار فظيع كنَّا نسميه : «حمار الثورة» ، السماء صافية وزرقاء في الصيف .

تتعرى بين الأشجار فيلفح صدرك نسيم بارد وتسكب الماء الثلجي على رأسك فترتعش قليلاً وتفتح فمك حتى تتنفس بعمق وطزاجة . تجلس بعدها عارياً تحت الشمس وتحدِّق في الوديان الخضراء تحتك . نسر أسود يفرد أجنحته بتوازن عجيب على علو شاهق ثمَّ ينزل عمودياً ويصعد من جديد . سلام ! ثقة مطلقة بالنفس ! رجولة في كلِّ شيء ! يدك ثقيلة كالمطرقة وعيناك حازمتان وفيها شيء من اللامبالاة . «عقلك يجرع هذا الجمال ويقف خارجه بطريقة ما» . وحدق في الأضواء تلمع فوق سطح «الدانوب» عبر غطاء شفاف من الضباب . رشف جرعة من الفودكا كمن يجرع سكيناً

سائلة من النار وواصل : «تدرّبت بعدها في معسكر سرّي في بلغاريا . ما زلت أذكر بدلاتنا الرمادية القصيرة التي لبسناها في مطار دمشق بدلات مضحكة لطابور من البهلوانات . يلعن العالم!» ونظرنا خلفنا . مرّت سيارة تدوي دوياً بعيداً وكأنه قادم من عالم آخر . سيارة توزيع الحليب، سوف يضعونه أمام الدكاكين المغلقة حتى الصباح . نهضنا بتثاقل وعبرنا الشارع واقتربنا من صندوق بلاستيك أبيض فيه كومة من أكياس الحليب الباردة . مضينا نشرب إحداها وندمدم :

Strangers in the night
Exchanging glances,
Searching in the night
What were the chances

وارتفع الغناء قليلاً قليلاً . رأيت عجوزاً يسحب الستارة خلف نافذة في الطابق الثالث . دانا ! دانا ! دانا ! وبدأت أركض وأنادي وأبكي : دانا ! دانا ! دانا! . نداء حاداً ، ممطوطاً ، ضائعاً في الضباب . كان المطر يلطم وجهي وصوتي والرصيف . الشبابيك ضاع

منها الضوء دفعة واحدة مثل عيون تنغلق بالتتابع .

عبرت قهقهة مجنونة لسيل يسرع نحو هاوية النهر فغرقت حتى الخصر . انقطعت الكهرباء بعد عدة محاولات فاشلة للبقاء . حاولت إبصار الطريق فلم أبصر غير الظلمة الدامسة يصفعها المطر .

«مالك يا زلمة ؟ مالك ؟ فيش بتفكِّر ؟ ها ؟ . . بسيطة!»

وانتبهت على بلال وهو يرشف كيس الحليب ويدمدم بين اللحظة والأخرى :

Something in your eyes
Is so exciting,
Something in your smiles
Is so inviting

كانت الدنيا صحواً كاملاً . الضباب كان قد انتهى والشارع تعرّى بنقاء تحت مصابيح النيون المبتلّة ، والقنوات صافية وتلمع راكضة فوق الإسفلت الأسود .

- «ماذا حدث ؟»
- «تعني بعد انتهاء التدريب في بلغاريا ؟»
- «مثلا !»

- «قصص قديمة» . فرق هائل بين السماء الزرقاء في الأحراش وأنت تحمل رشاشاً يتلوّى كالعربيد الأسود بين يديك ، وبين التحديق في أضواء «الدانوب» في الليل . الغربة بعد آخر للوطن! مرّة أحرقنا سينما بأكملها في عمّان لأنّها عرضت فيلماً مشوّها عن جيفارا مثّله عمر الشريف . أيام عزٍّ وثقة بالنفس . تخيَّل فقط ، أغنية فيروز الشهيرة :

« كانوا يا حبيبي
ثلج وصهيل وخيلْ !
مارق عَبَاب الليلْ !
كانتْ أصواتنْ تأخُذْنا مشوار
صَوبِ المدى والنارْ » .

مصورة أمامك على الشاشة . وفجأة يندلع اللهيب ويتصاعد الدخان من الشاشة . لم نكن نعرف أنّ القدر سخيف إلى هذا الحد ! جرعنا في أيلول الهزيمة جرعة جرعة وببطء مثل صحن من القيح . اختبأت في الطابق الثالث من بيت يقع على الشارع العام . شارع ضيق

تغطّيه أعمدة الكهرباء والغبار والجرائد القديمة . جثة واحدة بقيت أمام الشبّاك مباشرة ، منفوخة مثل البالون الأسود وحولها الرائحة والذباب . ذباب كبير وأسود لم أر مثله في حياتي يخرج من فمها . مرّت شاحنة كبيرة مغطاة بخيمة مموهة وتجمع الجثث ، فيها جنود يغنون للنظام متعلّقين بالسقف وورائهم زوبعة من الغبار . مرّت الشاحنة على الجثة فانزلقت الأمعاء على الرصيف ، تحركت الجثة من مكانها قليلاً ثم عادت إليه . في اليوم التالي عبرت الحدود مع من لم يمت نحو سوريا . كنّا نسير ليلاً في الأودية المقمرة وكلُّ واحد منا يجر نعشه وراءه ولا نسمع إلاّ صوت الحصى والنعش تحت القمر . نمت شهراً كاملاً على سطح فندق رخيص في دمشق دون غطاء على سرير حديدي قديم . حولي علب فارغة وصناديق قمامة . لم أتعذّب في حياتي مثلما تعذّبت على ظهر ذلك الفندق تحت نجوم سوريا . تذكّرت كلّ ما ضاع مني في الحياة ولكن أفسر ذلك لك ؟

وأخذ يغسل وجهه بالمياه الباردة من قناة تركض صافية فوق الإسفلت تحت أضواء النيون . صوته صار خشناً

بعدها مثل زفير النيران وهي تلتهم عوداً يابساً تتطاير منه شرارات قليلة في ليلة بعيدة ومظلمة . كلماته كانت متزنة ، بطيئة ، بقليل من الانفعال : «كلٌّ واحد منّا يجر ماضيه وراءه مثلما تجرُّ الكلاب الإسكيمو زلاجة تحت عاصفة ثلجية . لا نستطيع السير في الحياة إلاّ ملَّفعين بالماضي من الرأس للقدمين . كلٌّ منّا يحمل سوطه ويفرقع في الهواء . وأخيراً نشعل النيران فوق الثلوج ونحدِّق في الكلاب وهي تلهث فاتحة أفواهها . لا نبصر إلاّ ما تلوِّنه النيران وما تعطيه بعداً عندها . ما زلت أذكر تلك الليلة التي انضممت فيها للمقاومة . كنت في غرفة صغيرة على ضفة دجلة . عندما يخرج القمر يسقط فوق السرير من النافذة . كانت معي فتاة عراقية شعرها أسود وطويل وتجلس عارية تحت القمر . أنا وهي والقمر ! بين الواحد والآخر كان هنالك حاجز غامض . كنت أخاف ركوب الخيل لأنَّها تقفز فوق الحواجز ، أخاف من القمر لأنَّه يأتي صامتاً ويذهب صامتاً وتبقى الحواجز . كنّا نجلس معاً ولكننا لا ندخل عالم الإنسان الآخر ولا يدخل عالمنا .

وانزلقت دمعتان كبيرتان على وجهي وباردتان . شعرت شعور جندي روماني يحمل مشعلاً في الليل، يحمل عوداً على طرفه خرقة مشتعلة ، وينزل درجاً ضيقاً في قلعة رومانية قديمة . تحيط به الجدران المقفلة والدرج يقود للأسفل دائماً . وأخيراً يصل لقاعة واسعة تتراقص أعمدتها تحت الضوء الأحمر الخفيف . يتأملها طويلاً جداً بصمت وكأنَّه يبحث عن شيء ما . الجدران ترشح عرقاً والقاعة منحوتة بعناية والزوايا مكنسة جيداً ولكن لا شيء يوجد في هذه القاعة .

يرجع صامتاً وهو يتصبب عرقاً ويلمع تحت نيران المشعل ، أمَّا القاعة فتبقى في انتظار تائه جديد . هذا هو الحاجز الغامض بالضبط . نحن نبحث عن شيء لا نعرفه ولكن نحسُّ أنَّ وجودنا ناقص بدونه . هذا ما شعرت أنا به على الأقل .

حشوت ملابسي في حقيبة جلدية بصمت وكانت الفتاة تحدِّق في عروق يدي النافرة . توقفت عند الباب وحدَّقنا في بعضنا لمدة طويلة تحت القمر ثم افترقنا للأبد، لم نقل كلمة واحدة» .

لكلٍّ منّا ماضيه الخاص . ماضيه الذي يشبه بئراً أزرق عميقاً ومهجوراً وفي قعره بعض أكوام الحجارة والوحول . ولسوف أحفر بأسناني وأظافري ويدي وشعري الذي يتلّوى على كتفي مثل الأفاعي . سوف أحفر في زوايا هذا البئر حتى أجد الطريق إليك ثانية يا دانا ! .

لقدِ التقينا منذ زمان بعيد . . . بالقرب من بودابست . . . تعرفين معنى أن يمرَّ العمر ولا يترك غير الماضي البعيد لنا رغم أنَّه فرصة الحياة الوحيدة ؟ . هل كان انسجام الكون سيفقد الكثير لو أننا عشنا هذه الفرصة الوحيدة بسعادة ؟ كان المنتزه محاطاً بجبال شاهقة تغطيها الغابات . حاولت مرَّة صعود أحد الجبال لكي أرى ماذا يوجد خلف الأفق . وفي وسطه بالضبط اضطررت للزحف على قدمي وبطني حتى لا أتدحرج نحو الهاوية . بعد عدة أمتار قليلة وجدت قنينة كولا مكسورة في وسطه بالضبط . حدَّقت يائساً في الدم فوق الأشواك خلفي وفي الزجاج أمامي . لقد استطعت العودة بشكل أو بآخر ، والمساء غطّى معالم

الأشياء تقريباً . جلست أمام ساحة مضاءة وفرقة موسيقية تعد الأدوات حتى يرقص العالم . رأيتك هناك . بسيطة الملابس وجالسة بهدوء . كثيراً ما كنت أحب الجلوس في القدس القديمة على كرسي في مقهى ، أجلس فوق الرصيف المزدحم وأراقب عيون العابرين بكل اتجاه أو بغير اتجاه . تسعدني بعض العيون وتؤلمني الأخرى ثمَّ لا نلتقي ثانية . لكنَّني لم أبصر مثل عينيك يا دانا ! كان فيهما ما كنت أبحث عنه ولا أعرفه . إمكانية البذور ونضوج الآلهة كانا فيهما . اختفينا بين الأشجار في أزقة تتشعَّب في الغابة تحت أضواء النيون وتركنا للنّاس عالمهم وذهبنا لعالمنا الخاص . وصلنا لآخر شارع ما ، للأسلاك الشائكة المحيطةَ بالمنتزه . حاولت لمسك مثل مئات النساء اللواتي أغريتهن ، عرفت أنك لست مبتذلة . حدثتك عن أشياء عادية فنظرت للنجوم ، عرفت أنك طفلة عالم أجمل من عالمنا . أمامنا كانت الظلمة والأشجار في آخر المنتزه . دخلت تحت الأسلاك وأنت تهمسين : «تعال ! سنذهب للدانَوب ! الدانوب جميل جداً في

الليل!» أعرف المنطقة جيداً فأمامنا لا توجد إلاّ الظلمة والغابات . الدانوب الأزرق بعيد جداً يا دانا ! الطريق إليه منعدمة وشقها شبه مستحيل . وشعرت برجفة تسري في أعماقي فتقلّص وجهي وتوقف شعري في مكانه . تخيَّلت أن هناك عدَّة أشخاص يريدون قتلي وإلقاء جثتي في القناة القذرة خلف الأسلاك إنك مجرد فتاة مهمتك إيصالي للقناة وكنت جميلة وتستحقين المهمة . تراجعت بقفزتين للوراء حتى وقفت تحت المصابيح . «لا يا دانا! دانا! بحكي لا يا دانا !» . حاولت جذبي بعنف نحو الأسلاك والغابة : «تعال! تعال! الدانوب جميل جداً في الليل!» ولمعت عيناك بنفس الصفاء . قفزت للوراء وتطلّعت حولي بقلق . تراجعت عن خطتك ومشيت معي ، جلسنا على مقعد خشبي تحت المصابيح والغابة غامضة وداكنة من ورائنا ، نظرت للأوراق المتحركة خائفاً منها . قلت لي : «أنت خائف! خائف ! لا شيء هناك!» «ونظرت لوجهي ثمَّ للوراء : «أنا لم أقتل أحداً يا دانا! لم أعذب ولا حتى قطة سائبة! أنا يا دانا بلا أهل ولا وطن ولا مستقبل ولا

مال ! أنا مجرَّد إنسان متعب جداً ، مطارد من كلِّ شيء ، أنا يا دانا . . » تدفقت الدموع في صوتي المختنق فتركتك جالسة فوق المقعد وحيدة وفي حالة مظلمة .

ربَّما نلتقي ذات يوم يا دانا ، من يدري فالعالم أصغر مما نتخيَّله كما يقولون . لقد ولدت في الجبال ، جبال فظيعة جداً في الصيف . السماء زرقاء وبعيدة فوقي والأحراش الخضراء أمامي والبحر يهدر في الأفق أحس أنني دائماً هناك . أحسُّ أنني هناك دائماً أقف مثل حصان برِّي أخضر في سفوح الجبل ، إنه يصهل الآن وحيداً وبكل قوته ويحدِّق في البحر والسماء! يسير قليلاً عدة خطوات وهو يجر رسنه وراءه. إنه يحدِّق في الحياة والأودية بلا أمل ويصهل بكلِّ قوته ولكن الصهيل يموت على ارتعاشة شفتيه . إنَّه يقف وحيداً ، أخضر ، في لحظة مشمسة وخطرة . لقد فقد كلَّ شيء وأصبح حرّاً أو فقد حريته وأصبح كل شيء! كان بإمكانه أن يكون حصان سباق يركبون عليه ، كان بإمكانه أن يكون نجماً مثل بقية النجوم الكثيرة في الليل ، ولكنَّه فضَّل هذا الصهيل البري اليائس في

الجبال العالية الوعرة، هذا هو سرُّ جماله وروعته ومأساته. إنَّ الجبال التي نصعدها يا دانا بسهولة ليست إلاّ مأوى للمسنين والعجزة، ليست جبالاً بريَّة الكبرياء ولا يمكنها أن تكون كذلك. والشفق الذي نستطيع المشي عليه ليس أفقاً للحالمين، بل مجرَّد سجادة حمراء في صالة استقبال باردة. كلُّ شيء وله حدوده وصفاته ومصدر تميُّزه. هذه هي اللحظة المشمسة الخطرة! لحظة دفاع عن زرقة عينيه الواسعتين واخضرار لونه وبريق عضلاته وبدائية صهيله لأنَّ هذه هي صفاته وحدوده ومصدر تميزه! لأنها سرُّ روعته ومأساته. ولكن لمن ولماذا أقول ذلك؟

أذكر تلك الليلة الأخيرة في غرفتك في جنوب بولندة كانت الموسيقا حالمة تنساب في أعماقنا والضوء الخفيف يلوِّن أجسادنا العارية وسريرنا. وضعت يديك على صدري وشعري يلمس وجهي. كنت كالحورية الزرقاء قلت لي: «طفلنا سيكون جميلاً بالتأكيد! والده من جبال فلسطين وأمه من غابات بولندة! لماذا لا نتزوج يا حبيبي! لقد دافعت عن بكارتي في عالم توسعي

ولكن أعطيتك إياها مثلما أعطيتك الحبَّ في الشمال!»

ومرَّت في عينيك جبال الطفولة ، وأمّي عندما ودعتني ، مرَّت القدس القديمة :

«وأبوابُ المدينة كلّها مرَّت

وبابُ المطعم الشَتويِّ مرَّ !

لم أنسَ شيئاً غيرَ وجهك كيفَ ضاعَ ؟

وأنتِ مفتاحي إلى قلبِ المدينة!» .

سمعت في صدري حمحمة الحصان وهو يحدِّق في الأودية وحيداً وأخضر في لحظة مشمسة وخطرة .

يموت صهيله فوق ارتعاشة شفتيه من أجل أن تبقى له ذاته كلها - ذاته المتميزة ولو كانت محطَّمة ويائسة !

تسلَّقت شجرة سرو ذاهبة في السماء وحذَّرت الفراخ الصغيرة العمياء من فقدان حدودها ومن الشيء الذي يدعوها لكي تصبح حلماً لا يمتُّ لأصلها بصلة .

حدَّقت في عينيك والضوء الأزرق والموسيقا الشاردة .

شعرت شعوراً غامضاً أنَّ هذا اللقاء هو اللقاء الأخير ورأيتك تنتزعين سلسالاً فضياً على طرفه سمكة فضية وتعلقينه في عنقي أمانة أبدية .

لقد ضيَّعت هذا الإله الفضي الصغير فيما بعد يا دانا ! ضيعته ولست أملك ما أدفعه حتى أسترده ، أخذه بلال منِّي ، رمى السمكة في كأس نبيذ وعلَّق مكانها رصاصة فارغة يحملها منذ أيام الحروب في الأردن ، وأضاع الرصاصة والسلسال معاً في الليل فيما بعد .

وحتى بلال ضاع منِّي بعد ذلك يا دانا ! رأيته للمرَّة الأخيرة يتجه لطائرة الظلمات وحيداً وسكراناً وفي يده حقيبة جلد صغيرة . حقيبة ليس فيها أمل ولا خطط ولا مستقبل ، حقيبة ليس فيها إلاّ ملابسه الداخلية المتسخة .

سبع سنوات من الغربة لم تعطه غير حقيبة جلد . صعد إلى الطائرة الجاثمة مثل هيكل عظمي من الفسفور لحيوان منقرض في ليل المطار ولم يتلفت ولا حتى إلي ! مَنْ يدري ! لعلَّه لو تلفَّت للخلف لم يكن يبصر إلاّ كومة من النيران الزرقاء في وسط المطار . تخيَّلت واقفاً فوق جناح الوداع في المطار بأنني أرجع يا دانا إليك بعد عشرين سنة . بيتك في شارع يركض فيه الضباب تحت المصابيح الصفراء ويتصاعد مثل الأبخرة .

كنت أسير حافياً فوق جليد بارد يغطي الرصيف بغطاء زجاجي متزحلق تغوص فيه الأضواء والوجه كأنما في مرايا حقيقية . وجهي جامد وصامت مثل التماثيل ويداي في جيبي وبنطالي مهترئ . دخلت في دهليز مظلم فيه صندوق قمامة وقطتان تتعاركان معاً . قرعت الجرس فخرجت إليَّ في ثوب نومك الأزرق الشفاف شبه نائمة . سألتك : «هل موجودة دانا هنا؟» حدَّقت في وجهي العجوز بلا مبالاة وهززت رأسك : «لا ! لا توجد امرأة بهذا الاسم هنا! ربَّما أخطأت في البيت!» وأطبقت الباب بهدوء ، كان الضباب يركض على غطاء الشارع الزجاجي والأضواء الباهتة الصفراء تتخلله . ورأيت وجهك معلَّقاً في الفضاء ويكبر كلَّما مرَّ الضباب عليه . وسمعت صوتاً رخيماً وحزيناً يقول نعم من جليد وضباب :

هذا النضوجُ المرُّ في عينيكِ يوحي بالنبوّة ،
هكذا زخمُ الأنوثة ،
هكذا زخمُ الحياة!
كالدبكةِ الشعبيةِ الخضراءِ فيكِ أصالةٌ ،

وبساطةٌ ،
وصدى مياه !
عيناكِ شاردتانِ . منذُ متى ؟ لماذا تنظرينَ إليه من غيرِ انتباه؟
هذا حبيبك !
عادَ نحوك ضائعاً
بين الشبابيكِ المضيئة باللغاتِ الأجنبيةِ والعراة !
لا تنكريه !
ففيه يصفرُّ الرصاصُ ،
وفيكَ يخضرُّ الخلاصُ ،
وفيكَما يتجسَّد البشرُ الإله !

وأقلعت الطائرة وتركتني وحدي . لماذا أنتهي وأعيش وأرحل وحدي دائماً يا دانا؟ رجعت وحيداً للعالم العادي . حدَّقت في نقطة واحدة تدور على نفسها في وسط «الدانوب» . نقطة واحدة لا قرار لها ، نقطةٌ ضائعة والأضواء على سطح الماء حولها . لقد ضاع كلٍّ شيء ! ضاع السلسال والحب والصداقة ! ضاع كل

شيء ! [وما الذي يملكه أمثالنا من الذين ضيعوا حتى أنفسهم وابتلعتهم الغابة الزرقاء إلاّ بعض الكلمات ؟ كلمات نفاجئها فتهرب من صدى خطواتنا مثل الصراصير عند إشعال النور في سلَّم بيت مهجور إلاّ من رائحة الرطوبة والليل ! إحساس غريب هذا الذي يلفُّ الواحد منا عندما يدرك ، رغم تشبثه بالحياة ، رغم أنَّ من حقِّه أن يحرز لحظة واحدة من السعادة ، أن عليه أن يمضي محروماً ووحيداً ولا تبكي عليه ولا حتى قطة سائبة ، هو وحده وعليه أن يمضي ، سينساه كلُّ شيء ، لقد ابتلعته الغابة الزرقاء . هذا هو كلُّ ما حدث .

[صوت عقارب الساعة يأخذ بعداً لا معقولاً عندها وهو يجلس في غرفته المضاءة بصمت وجوده فيبكي ويدخن ثمَّ يحدِّق في اللاشيء . يبحث عمن يفهم حزنه ، عن قبلة دافئة أو ابتسامة عابرة . لا يفقد الألم ولا الأكل ، في أن ينتهي كلُّ هذا الاستجداء إلى لحظة صغيرة من السعادة ويمرُّ الزمان عليه وهو في مقهى ما على الرصيف يحدِّق في عيون العابرين بلا انتباه . في

ابتسامته ووميض عينيه يوجد عمق من الدفء والرغبة في البكاء بصمت إلى الأبد . يسير في المساء بلا انتباه ، في شوارع صفراء الإنارة ، حولها أشباح الأشجار لا تكشف غير الشبابيك المضاءة المغلقة ، ولا يرى غير القمر في الزرقة الغامضة صامتاً من خلال الأشجار وصافياً وكأنَّ شيئاً لم يكن .

وحدَّقت في نقطة واحدة لا قرار لها ، نقطة تدور مغلقة على نفسها في نهر الدانوب . نزلت للماء ومشيت ببطء في برودته حتى لم أعد أبصر إلاّ المياه تمتدُّ حتى اللانهاية . «الماء طريق الغرباء» ، يبتعد ويتسع ولكنه الطريق الوحيدة .

مشيت في شارع طويل بمحاذاة الدانوب تحت المطر والصمت والنيون . ورأيت وجهي في البرك الصغيرة حزيناً وبعيداً . جاءت موسيقى صاخبة من بار صغير ، وخرج بعض الراقصين يحتضنون بعضهم وتفرقوا في الشارع العريض .

«بين الواحد والآخر حاجز غامض . ما زلت أذكر وجه تلك الفتاة العراقية في الليلة التي انضممت فيها

للمقاومة . وجه غريب يذكرني بقول السياب :
«عيناك غابتا نخيل ساعة السحر
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر» .

وجه يتماوج مثل نخلة تحت القمر على ضفة الفرات :
بصمت وحيادية مطلقة . كان يفيض منه سلام روحي
ينتقل إليّ بتنويم مغناطيسي . مرّات ما ينعكر هذا
الصفاء بمسحة رمادية من القلق فيكتسب الوجه حدة
خاصةً في التعبير ويشبه عندها مرجاً بارداً من الثلوج
في لليلة مقمرة يعبره سرب من الوعول البرية
والظلال . عندها تنتقل عيناها بين القمر على جسدها
العاري وبين الفرات ، وبين أصابعها النحيلة البيضاء
سيجارة تحذرني بحلقات دخان الدوامة الصغيرة ،
مرات يتصاعد هذا القلق إلى حدٍّ يوحي فيه بالرعب
الشامل : مرّات قليلة ما زلت أذكر إحداها .
كانت خارجة من دكان زجاجي لشارع فيه غبار
وسيارات وعابرون في كلِّ اتجاه . الوجه أصفر تحت
قطرات من العرق البارد والعينان شاردتان ، وشعرها

يتطاير خلفها بتعب وذهول اصفرار شبحي غريب يوحي بالخيانة وبإحساس مكبوت بالذنب وبحب جارف لشيء ترتعب منه وجه مريض وباهت ومرعب على طريقته الخاصة . سارت وكأنها تمشي نائمة تحت تأثير صدمة ماضية تجنبت العابرين بحركات أوتوماتيكية ثم توقفت فجأة مصدرة ضجيجاً هائلاً حتى لا تصدمها ، ورأيت السائقين يشتمون من الشبابيك ذات الستائر الحمراء .

وجه متغيِّر مثل الزمن . مرَّة كانت تلعب تحت الشمس على العشب الأخضر بين أطفال يحملون بالونات صفراء وحمراء ووردية . أطلقت البالونات في السماء الزرقاء وقهقهت بعمق مثل الزبد الأخضر تحت الشمس : نقية وجميلة أحسست أنَّ العراق بأكمله صار سيمفونية متناسقة وحالمة ، ولم يسجِّل فوقها الماضي كبته وقمعه وحواجزه لا لشيء إلاّ لأنها ضحكت فيه .

إنَّ هدير المحركات يدور على نفسه في ظلمات الفضاء تحت نجوم سوريا . متى سيصل هناك ؟ أخوه دكتور في ليبيا وأخوه الآخر في تونس لماذا يحاول هذا السفر

هو الآخر ؟ وجلست على ضفَّة «الدانوب» وحدَّقت في الأضواء والمطر والأمواج الخفيفة تلتقي وتفترق وتذهب في النهر الواسع نحو مصباتها في غابات ما .

تعرفت إليه في منتزه «فروستا» ، منتزه صغير بالقرب من «بودابست» كان يرقص دون قميص كاشفاً شعر الرجولة السمراء في صدره ، يرقص فوق طاولة قلقة والكل يصفر ويضحك ، فتاة شقراء ناولته كأس ويسكي ينعكس الضوء عليها فتلمع كالمصباح ، ويسيل العرق والموسيقى على صدره البرونزي .

في الثانية ليلاً أغلق البار نفسه مثلما نغلق أنفسنا وتفرَّق رواده جماعات جماعات في طرقات الغابة تحت مصابيح النيون الساهرة وبقيت وحيداً تحت الرطوبة والصمت ، والبار نقطة ضائعة تحت نجوم الله خلفي ومغلقة على نفسها . لا بيت للنوم فيه والبعوض يطيِّر هنا وهناك حول القنوات . مشيت إلى مسرح في الهواء الطلق مقاعده الخشبية فارغة وساحة التمثيل صامتة والنيون هناك فوق المقاعد والأشجار والوحدة .

جلست منكمشاً على نفسي لأحلم بامرأة . وفجأة ظهر من بين الأشجار بلال ، سكراناً ويغني بالعربية .

- «الأخ من فلسطين ؟»، سألته معتمداً على لكنته .
- «طبعاً ! وأنتَ ؟»
- «من نفس الطينة»
- «اسمع ! أنا أمثّل وأنت تصفّق . طيّب ؟»

صعد على خشبة المسرح بقميص أسود وبنطلون أسود وبشعر يتهدَّل على الكتفين كأنه قدم من غابات الأمازون ، رقص قليلاً ثمّ توقّف فجأة : «والآن ، سيداتي سادتي ، الحياة غالية جداً ومشكلتي أنَّها تمرُّ دون أن أعيش . الماضي مثل هذا الشارع بالضبط : الأشجار عارية وحقيقية على جانبيه ، ولكن بمجرَّد أن يلمع ضوء النيون بعد المطر يولد سرب آخر من أشجار وهمية ، تنمو داخل الإسفلت الأسود فتخلق عالماً من الثمر والورق في الأعماق . الماضي سرب من الشجر الوهمي لا يدلّ إلاّ على ازدواجية عالمنا ، ولكن لماذا نحدِّق فيه دائماً ونشتاق إليه دائماً وننسى الحقيقة الملموسة حولنا؟ والحياة مثل هذا الشارع بالضبط : نصفها حلم ونصفها حقيقة ، ولكن لماذا يزحف

الكثيرون منا فوق مرآة الإسفلت الماطرة ، بوجوه دامية ، وبأرجل دامية ، ومع ذلك يهتمون بالزحف حتى النهاية ؟ لقد زحفت أنا ، أيضاً ، معهم ، وهرمت كثيراً منذ ذلك الوقت هرمت كثيراً . . . والقنافذ أغلقت شوكها حول نفسها وراحت في بيات شتوي طويل ولا يمكنني أن أدخل عالمها بعد الآن .

لم يبقَ لي إلاّ الشمس تشرق فوق مروج مدفونة بالثلج وغير جرح الريح البارد في حنجرتي ، الشمس دافئة وتعوّضني عن الكبرياء ، والثلج بارد ويعوّضني عن النساء ، ولكن ماذا سأفعل في الهواء بما تبقّى من حياتي هذه وما مرَّ منها فوق الثلج هذا ؟ .

في روحي نهر أسود من الأحلام الضائعة والحرمان المطلق يجري في غابات الروح الزرقاء إلى كهف لا قعر له والنهر يزداد ضجيجاً ويوماً بعد يوم ولا أشعر أنّي عشت على وجه الإطلاق . لماذا نزحف كلنا حتى النهاية ، كلنا وبلا استثناء ؟» .

«لأن بين الأرض والسماء ، يا هوراشيو ، أموراً أكثر بكثير مما تحلم به فلسفتك !»

«صفّق ولا تعلّق يا حيوان» .

قال ضاحكاً فطارت بعض العصافير في الغابة وارتعشت أغصان ما وتعارفنا في تلك اللحظة. تجوّلنا طويلاً بين بيوت من الخشب مخصّصة للصبايا فتوقف قدام بيت صغير وطرقه بثقة عدَّة مرّات، فجاء صوت أنثوي بإنجليزية ضعيفة:

«من؟»

«ولو.. بلال بلال يا أختي».

لم أستطع إلاّ أن أضحك محاولاً كتمان صوتي. وانشقَّ الباب عن صبية شبه نائمة نظرت إلينا بشك. قميص نوم خفيف وشعر مبعثر وأقدام حافية.

«الدنيا برد! تعالي ننام بسرعة! يللا!»

قال ذلك بالعربية ولم تنتبه إلاّ ونحن في الغرفة. وانهمر سيل من كلمات لم نفهم منها شيئاً وجلست بنرفزة فوق السرير، استيقظت زميلاتها فشرحت أنا الوضع بلطف وطلبت شرشفين للنوم على الأرض. بعد قليل تحسَّن الجو شيئاً فشيئاً... وأخيراً ضاجع كلٌّ واحد منا واحدة حتى خرج الفجر من بين البيوت. توقَّف المطر وتصاعد ضباب فوق النهر تخترقه الأضواء

فرميت بعض الحصى فيه وانتظرت الأيام القادمة بلا مبالاة .

عملت بعدها في مصنع لصهر الحديد من العاشرة ليلاً حتى السادسة صباحاً : غسلت محاجر عيني عشرين مرة بالصابون والماء الساخن حتى يذهب الدخان ، وانتظرت في محطات القطار الصباحية وهي خالية إلاّ من بعض العمال الواقفين لوجوه منكمشة وهم يدخنون شبه نائمين ، وصعدت قطارات فيها قليل من الركاب يراقبون الأبنية والفجر والشجر خلف النوافذ المسرعة بلا كلمات ، وسرقت من ثلاجات مغلقة في ممرّات الكلية طعام غيري ، وألقيت كلّ صباح بنفسي وشعري وحذائي فوق سرير مظلم وذهبت في نوم قلق ، كلّ ليلة سهرت فوق الحشائش الخضراء والنيون قدّام فندق سياحي وراقبت سائحات شقراوات في الطوابق المضيئة يحضرن وجوههنّ للموسيقى والبار والعناق ، وفي داخلي شهوات صغيرة تخرج مثل الأرانب التي لا ترى بالعين المجرّدة وترعى حشائش الإحباط تحت النيون والندى حتى يجئ موعد المصنع .

مرة أخرى بالدخان . في هذا الفندق كانت دانا ذات يوم! منذ سنين مضيئة وطويلة مثله . تعرفت إليها في منتزه «فروتسا» وكانت صديقتها «زوشيا» .
جدفنا في قارب خشبي في «الدانوب» تحت الشمس وفوق خيول الزبد ونظرنا إلى خضرة الغابات تلمع تحت حرية الأشعة الدافئة ، والتقينا ثانية فوق جسر «اللانس» فرأيتها قادمة من بعيد والنهدان يهتزان مثل أراجيح الطفولة في تلك السنين الصقيعية . تعرف بلال إلى صديقتها «زوشيا» ذات الشعر الأشقر والوجه النحيف والابتسامة الحزينة . والدها عامل منجم سكير وعجوز ولم تسأل بلال عن أسبابه الخاصَّة في السكر . أو ليس هذا كافياً للحب ؟ تجوَّلنا معاً في الشمس في جزيرة «مارجيت سيجيت»، جزيرة كانت لطيفة أيامها و«الدانوب» يطوقها بذراعين من الماء المتعكر ، ومشينا في زحام من الناس والأطفال يلعبون بتنانير صفراء وبرتقالية فوق مروج عشب خضراء ورجعنا إلى هذا البار بالذات ولستين ساعة لم ننم فصعدتُ ودانا إلى غرفتنا في الواحدة ليلاً . تمدَّدتْ بقميصها الأزرق

الشفّاف استعداداً للنوم وتعريت أنا مثل قطيع خيول يترك ضجته في السهول الحمراء والوحول. موسيقى حالمة ودانا! زمن يستحق العيش فيه.

«كم كان إلهُ الشهواتِ يقبّلُ جسرَ سريري في الليل»!

وعندها دخل بلال «وزوشيا» سكرانين. قال ضاحكاً هذه الضحكة التي أحبُّها فيه:

«ضيَّعت حذائي!». كان بالفعل حافياً وضحك:

«أين أنام أنا؟ ها؟»

«في المغسلة!» أجبته بتعب.

«بارد جداً! سأنام في... في الخزانة!».

ونبش الخزانة كلّها ورمى بكلّ شيء خارجها، وتمدّد واضعاً رأسه في الخزانة وحاول إغلاقها. «رأسي يجب أن ينام لوحده!» بعد قليل سحب «زوشيا» من يدها وخرج «الدنيا قمر! سأسبح في الدانوب عارياً!» غاب نصف ساعة وجاء ضجيجه في الممرّ من جديد وانفتح الباب: أحضر عشرين ألمانيا وألمانية للنوم في

غرفة : لا تتسع حتى لنا . . . »، يا أخي عندهم غرفة تفضلوا ! تفضلوا ! جلس البعض على النافذة والبعض فوق المغلسة والسرير وتراكم قسم فوق نفسه . «ناموا! ناموا!» وأغلق الباب وخرج ليسبح في النهر . ولم أكد أغفو حتى سمعت صراخ الباب : «قوموا ! هيه ! قوموا!» عندنا في فلسطين غارات كلَّ ليلة ! قوموا للفطور وحضروا أنفسكم للتدريب . لم يعرف الألمانيون تمييز الجد من الهزل فاستيقظوا جالسين . توقف عند الباب واكفهر وجهه كلياً وغمره صمت قاتل . مرّت لحظات والكلُّ يحدِّق فيه . كان في عينيه بريق غريب لم أره من قبل .

«ولا ! هل يحبنا أحد في هذا العالم ؟»

قال ذلك وحدَّق في المرآة طويلاً بصمت . لم أجب ، قلص يديه بشكل مسدس وأطلق طلقة في المرآة ، في جبينه بالضبط لكنَّه لم يمت . ضحك من فكرة ما وخيَّم الصمت فوق الجميع :

«الأشبال فظيعون . ما زلت أذكر انضمامي للمقاومة . دخلت من باب واسع في سياج من الأسلاك الشائكة .

رمال تلمع تحت حرّ الظهيرة وقميصي ابتل من العرق وكلب أسود مربوط في شجرة نهض وعوى عليّ بعنف محاولاً قطع الزرد المربوط به. انحرفت يساراً نحو مكتب خشبي وجاء صوت من مكان ما: «قف!» وقفت وظهر شبل في العاشرة من عمره خلفي، وجه لوّحته الشمس والعرق، وكان عارياً حتى الخصر وفي يده مسدس. شبل عنيد ولا يمكن التفاهم معه. حياتي كانت على كفّ عفريت لولا خروج ملازم من المكتب بالصدفة فدعاني إليه، طاولة خشبية قديمة عليها ورق شَدَّة وكأس ماء وفيه ذباب وحرْ. سلَّمني للشبل نفسه وبعثني لمكان آخر في المعسكر، دخلنا خيمة فيها ضابط بملابس مموَّهة حدَّق في حذائي البرتقالي اللامع وقميصي الأبيض وشعري الممشط بعناية:

- «تريد الانظمام إلينا يا رفيق؟»

- «نعم يا رفيق!»

- «شكلك ناعم. هل أنت طالب يا رفيق؟»

- «طالب هندسة في بغداد.. هندسة كهربائية!»

- «أحتاج أيضاً، لمهندسين يا رفيق».

- «ولكن هنالك واجب يا رفيق».

وتسلّمت بدلة عسكرية بعدها وابتدأ التدريب : قفزْ فوق حواجز النار في شمس الصحراء ذوب الشحم في البطن والأرجل ببطء حتى تفصّل الجسم من جديد ، وتسلّق للجبال بكامل الأسلحة وكلّ لحظة يمكن أن تتدحرج نحو الواد وزحف تحت الأسلاك الشائكة وطلقات الرشاش على علوٍّ بسيط فوق رأسك ، خطأ واحد وتنتهي ببساطة . صرنا أصدقاء أنا وأحمد ، الشبل نفسه الذي حدثتك عنه . الأمر عنده أمر وانتهى ، ولا يعرف شيئاً عن معنى الموت وفظاعته ، أحياناً كان يزورنا الطلاب بأحذيتهم اللامعة وقمصانهم النظيفة حيث توجد أقلام الحبر وغيرها فاستغرب كيف كنت أنا مثلهم ذات يوم ، الحياة طرق مختلفة على أية حال .

كنّا نقف سرباً واحداً في الصحراء وأمامنا حلقات النيران المشتعلة ، والرمل يمتزج بالعرق والتعب فوق وجوهنا . مرّة جاء أحمد عليّ . كنت نائماً في الاستراحة تحت شجرة المعسكر وطلب أن أرتدي الملابس المدنية . لم أفهم لماذا وأصرّ على ذلك . قال

بعدها : «أبوك جاء من الأرض المحتلة . اذهب إليه» . وناولني عنوان الفندق ورقم الغرفة . صعدت على درج مظلم ولم أر شيئاً في الممرات .

كنت أخاف منه دائماً : من نظراته وصرامته ومعاملته لي كطفل صغير .

- «تركت الجامعة ؟»

وجلس على السرير وحدَّق في شفتي . كرهته جداً لحظتها وخفت من عينيه بالذات .

- «زمان !»

- «وبكل هذا الوقاحة ؟ زمان !»

حاولت أن أفهِّمه : الوضع لا يحتمل العودة للماضي ، لم أعد طفلاً ، ولكنه دفع نحوي بكمية كبيرة من الدنانير الخضراء ، مصروفي السنوي دفعة واحدة ، رافقني حتى المحطة . رجعت لبغداد فلعبت القمار عن كمية واشتريت حلوى ورقعة شطرنج ، وفي اليوم التالي كنت في المعسكر من جديد . أبي فظيع . كان يمنع حتى أصدقائي من زيارتنا في البيت حتى لا تخرب أخلاقنا ، يريدنا كلَّنا مهندسين وأطباء . أخي الكبير

فقط ، خرج كما أراده ، مدير مستشفى في ليبيا ، أما البقية على الله . هل تدري ؟ كان يجب أن أدخل المقاومة ولا أخرج منها أو أن لا أدخلها بالمرة . أما هكذا! هكذا لست إلاّ مجرّدً عالة على العالم ! أصدقائي في المدرسة تخرجوا من الجامعات ، بعضهم فتح صيدلية وبعضهم صار صاحب شركة في الخليج ، وبعضهم تزوّجَ ، وبعضهم مات . كنت الأول في الصف ، حصلت على أعلى معدل في الرياضيات في كلِّ الضفة الغربية ، وانتهيت هكذا ! مجرّدً عالة على الاشتراكية والمقاومة ، منحة قال ، منحة دراسية! أحيل أبي على التقاعد خلال هذه السنين ولا أدري هل سنلتقي ثانية أم لا! وأمّي ماتت بشلل نصفي قبل أن أراها . سكرت لما بلغني الخبر ، رميت السرير والمقاعد من الشبابيك ، وكسرت المرآة والشباك ولكن . . . ماتت . . ماتت قبل أن نلتقي ثانية!»

ولحقت بـ«دانا» لبولندة في ذلك الصيف ، لجنوب بولندة . عشنا في بيت من الخشب في جبال تغطيها الغابات وقوس قزح ، نستحمُّ في جدول صغير

كالأسماك الملوَّنة . نفتح أفواهنا من برودة الماء ونغفو على صخور بيضاء وناعمة ، ونلملم الفقع من تحت الغابات حيث تذهب البيرة للجحيم والظل أخضر كما قال رامبو . ننتشل الماء من بئر قديم والعصافير واقفة فوق أكتافنا ، ونشعل النار في الأودية ، ونتجوَّل في شوارع بين النجوم . كان هذا زمناً يستحق العيش فيه! . يا إلهي أعدْ حتى ولو ذكرى هذه السنوات ! دخلت دهاليز اللذة والغابات حتى تسلل الفجر ببطء ، فوقفت عارياً في الشباك وحدَّقت في الأفق والشجر يتحرَّك في ضباب خفيف . و«دانا» ممدَّة مثلما ولدتها الغابات ورائي ، ورائحة الخشب والرطوبة والصمت تبلل شعري مثل الندى : «بلال أحلو منك!» قالت «دانا» بعيونها الزرقاء مثل سماء الطفولة . وعلى البئر رأيت عصفوراً ينفض ريشه ويشرب ثم يبحث عن مكان يطير إليه .

- «أعرف» .
- «ماذا يعمل والدك ؟»
- «ميت» .

واستدرت إليها بعنف : «ميت ! . . أية أسئلة ؟»
ونظرت للغابة والعصفور ثانية وخيَّم صمت . ومرَّت
في نفسي الذكريات . تذكَّرت طلبة يمنيين سكروا تماماً
وتناطحوا بعنف بسيط في البداية . سال الدم من جبين
طالب أسمر ونحيل ولكنَّه أصرَّ على مناطحة جديدة
ووقف قدام غريمه . نظرا لبعضهما واستعدا «واحد
اثنين . . ثلاث !» وارتطم الرأسان بعنف ليس فيه ذرة
مزح . ترنَّح الجريح حول نفسه وهوى قطعة واحدة .
وقهقه الطلاب ضاربين الطاولات بالقناني الفارغة
والأيدي مشجِّعين . نهض ثانية وقميصه غارق في الدم
ووقف أمام رأس جديد .
«ولو ! يلعن العالم !»
قال بلال ودفعه جانباً ثمَّ خرج صافقاً الباب وراءه ،
لحقت صامتاً : «بلال . . بلال» ارجعوا . . وأمسك
بقميصي وهو يبكي ويصرخ : «والله يا بلال . . .
والله نمت في فولكات التلفونات في عزِّ البرد في ألمانيا
الغربية - الشرطة طاردتنا بكلاب صيد . . كلاب يا
أخي . . . كلاب لها صوت وأرجل وأنياب مدرَّبة . .

كلاب حقيقية ولا . . . والله نمت في المراحيض العامة . . . على كرسي صغير ! أعطيت المنظفة ماركين مقابل السماح لي بالنوم في مرحاض دون استدعاء الشرطة . . ولك نمت في المراحيض ! خلينا نتناطح ! ننبسط ! »
اسمه محمد على ما أعتقد . صار جزءاً من شلّتنا بعد ذلك ، نوعية غريبة وشاذة ولكنّها جذّابة على طريقتها الخاصّة . أحياناً يصرّ على أن يخرج عضوه التناسلي ويضعه على الطاولة في البار ، ومرّة على شبّاك المترو «لكي يتنفس الهواء النقي بعمق» على حدّ قوله . كدت أغيب عن الوعي من الدهشة والضحك ليلتها وهو يحاول ذلك وبلال يحاول منعه . حتى ركّاب المترو ضحكوا . «أنا حرٌ . . حرٌ . . حرٌ . . » فأجابه بلال : «حرٌ يا أخي . . حرٌ ولكن . . . يلعن العالم» . ووضع رأس محمد تحت إبطه حتى نزلنا . وسرنا في مطر خفيف وشارع عريض تحت النيون . سار محمد ، أيضاً ، قليلاً فلم يتحرّك . رجع بلال إليه وهو يدخن بعصبية : «مالك» ؟ سأله ورمى السيجارة بعنف .

- «سأنتحر» .

- «خير!»

- «سأنتحر الليلة في الدانوب!»

أجاب بمنتهى الجدّية وفشلت كلّ محاولة لإقناعه ، وجهه ازداد صرامة وبعداً . واستدار نحو «الدانوب» ووقف في بقعة مظلمة فوق جسر «اللانس» . قبض على الحديد البارد وتسلّقه . الريح تلوّح شعره وتعابير وجهه الجافة وتنكمش يداه النحيلتان على القضبان لحظة ضعف ويهوي ، واقترب بلال منه فنظر نحوه ، وجهه كان غامضاً :

- «طيّب ! طيّب ! يا محمد ! أنت حرٌّ ولكن . . . الدنيا برد و«الدانوب» متجمّد الآن ، قطعة واحدة من الجليد، حتى البط يا محمد لا يطيق السباحة . حتى الأسماك متجمّدة من البرد وأفواهها مفتوحة . انتظر يومين على الأقل ، يومين فقط ، ستشرق الشمس ويذوب الجليد والمياه تكون دافئة!»

- «وبعدها ؟»

- «ليس بعدها ولكن عندها انتحر أما الآن! الآن برد!

وابتسم محمد من الفكرة ثمّ نزل وهو يضحك :

- «صحيح ! الانتحار الآن حقارة!»

ومشينا نحو بيت صغير على ضفة «الدانوب» ، أثاثه قديم وورثته ماري عن جدّتها . فتاة طيبة لم تكن تدخن ولا تشرب لما تعرّفت إلى بلال وانتهت عاهرة بعده أو شبه عاهرة . لا أعرف بالضبط . رمينا ببعض الحصى الصغير على زجاج الشباك في الطابق الثالث حتى تعرف أننا هنا وتفتح الباب الرئيس للبناية .

- «هل تدري ما هي أعزُّ أحلامي ؟»

قال محمد لي بصوت فيه بحّة لم تزل في أذني تسقط مثل أشعة القمر .

- «ماهي ؟»

- «أحلم بالبحر في اليمن ، بالعمل على ظهر باخرة جنوبية ، والغوص بحثاً عن الكهوف المهجورة وهياكل السفن في الأعماق الخضراء ، حيث تتطاير أسماك القرش الأزرق وتفتح الأسماك خياشيمها حتى تلفظ شيئاً لا تعرفه الكلمات ، أحلم أن أنبت مثل الإسفنج فوق تلال لا يصلها حتى هواة الغوص بين جبال وردية اللون! عندما حدثني بلال عن الشمس تذكّرت الزبد والبحر والسفينة» .

وعانقتني «دانا» حتى أستيقظ من شرودي ، ووضعت موسيقى زوربا وهو يرقص فرحاً وأقدامه لا تلمس الأرض ، وطار العصفور إلى أفق لا أراه وبقي البئر وحده .

وتعانقنا طويلاً في محطَّة الوداع ، حيث يحيط قطار واحد مسافرين لأسباب مختلفة إلى أمكنة مختلفة . بكيت كثيراً من النافذة وهي تبتعد لما تحرك القطار ، وحضّرتُ أوراقي لعبور الحدود الجديدة ، قربي رجل وامرأة سمينة وفتاة .

«من أين هذا الشاب؟» قالت المرأة بالهنغارية . «لا يعرف الهنغارية على ما يبدو . ربما فرنسي» أجاب الرجل . فردَّت الفتاة عليه بثقة ودعته واحدة في المحطة وتكلَّما لغة أخرى . «إذن إنجليزي» قالت المرأة ، «انظري كيف يجهل اللغات» قالت الفتاة وردَّت شعرها للوراء بيديها . «من يدري؟ ربَّما أنَّه يفهم الهنغارية وحتى يفهم ما نقوله» . «على أي حال أعتقد أنَّه من البرتغال» قالت المرأة وقضمت تفاحة صفراء فيها بقع حمراء ؟ «لماذا البرتغال بالذات؟» ردت الفتاة

وحدقت في شعري. «لأنني لا أعرف شكل البرتغاليين» ردّت المرأة وضحكت. دخل ضابط الحدود وناولته جواز سفري «من أين هو؟» سأل الرجل «أردني الجنسية ومعه تأشيرة طالب في هنغاريا ، ردّ الضابط». أولا توجد حرب هناك. سألت المرأة. طبعاً ردّ الضابط. «كيف يموت شباب مثل الورد هناك. فقط أنظر» قالت الفتاة. ذهبت للحمام وغسلت وجهي من الدموع والنعاس. «شكلك معقول هكذا» قالت المرأة «هل سافر كثيراً؟» سألت الفتاة. «على جوازه تأشيرات لبلاد كثيرة» قال الضابط «أحبُّ أن أطوف في العالم كلِّه ، زاوية زاوية» قالت الفتاة، «تزوجيه» قال الرجل بسخرية ونظر من الشباك؟ «أنت لا تتدخل، ماذا يهمك أنت من زواجي؟ قالت الفتاة. أعتقد بأنه .. طيب تزوجينه» ، ردّ الرجل وتململ بغير ارتياح في مقعده وواصل القطار سيره والليل عبوره والفتاة حديثها وكل شيء ينتهي في يوم ما.

في «بودابست» بحيرة صغيرة وخطرة تلمع صيفاً تحت القمر مثل عين كونية حولها القصب ونقيق الضفادع ، وتنحني الأشجار عليها تحت القمر صامتة وغريبة.

في الشتاء تصير عيناً جليدية عمياء ومهجورة . تجوّل محمد حولها ليلة سفره ، كان يحمل قنينة خمر ويغني ولم أنتبه إلاّ وهو فوق الجليد ، توقعت أن ينهار هذا الجليد فتنفتح الجفون الجليدية ثم تبتلعه وتنغلق من جديد . لن يخرج منها بعدها ، فحتى رأس حوت لا يستطيع كسر الجليد وكلُّ شيء ينتهي في لحظة ما .

وكان يغني :

«والخمارات جنب المصابيح والسجن مطرح الجنينة»

لا يمكن الإنقاذ من بعيد، قلت لنفسي وجلست على مقعد خشبي حتى ينقذ نفسه . ناديت عليه عدَّة مرَّات ولم ينتبه . وافترقنا ليلتها . كلُّ ما أعرفه أنَّه صار بحاراً في جنوب اليمن لا يعرف إلاّ زرقة البحر والسماء ولا يرغب في الاتصال بأحد في ماضيه .

أحياناً ينهض من قبره قرب الشاطئ القمري في روحي ويغني مثل الحوريات على الصخور وكلُّ شيء ينتهي في بحر ما .

ونظرت للفندق المضيء والساعة تزحف نحو العاشرة ومصنع صهر الحديد. لماذا نزحف كلنا حتى النهاية ؟ كلُّنا وبلا استثناء ؟

. . . نمت في فندق قديم وصغير ورخيص في دمشق معي سكير مصري أسنانه منخورة وصفراء وجسمه نحيل وشعره كالإسفنجة التي التصقت بالصدفة على رأسه ، ضربته بقنينة كولا لما شتم الفلسطينيين فنقل للإسعاف واعتقلت لعدَّة أيام مع بعض الحشاشين واللصوص . لا أعرف السجن بالضبط ولكنّه وفَّر عليّ بعض المصاريف . أطلق سراحي بعدها فصرت أنام في السرير حتى لا أستهلك طاقة فأجوع ، اتصلت بأخي في ليبيا ليبعث لي تذكرة طائرة وبعض المال ، قد لا تصدّق . . . ذهبت لمسرح رخيص قريب من سوق الحميدية مع حشَّاش تعرفت إليه .

دخلت فصدمني الدخان والمقاعد المرصوفة بمجندين حليقي الرؤوس تماماً ، ولا امرأة واحدة ، هناك جلست بقرب الباب مندهشاً . . . خرجت راقصة مصرية سمينة يتعلَّق الشحم على خصرها . . . ويرتجف معه ، كانت نصف عارية فقط . والصفير صفير والتصفيق تصفيق والسجائر اشتعلت . . . المهم أنَّني ذهبت ساعتين . سيارات تلمع في الشمس الصحراوية

والعرق يسيل على جسمي حتى ابتل القميص من العرق والرطوبة . الحرارة أربعون في الظل على أقل تقدير . شخص ما على بلكون الطابق الثاني يلبس بدلة سوداء وربطة عنق رغم أنَّ الجو خانق التقت عيوننا عدَّة مرات فتظاهرت بتأمل الفندق . ستائر بيضاء وساكنة تماماً لا شيء يتحرك إلاّ الذباب في الجو . بلكونات فارغة ومغلقة والتقيت عيوننا ثانية سألته بارتباك : «هل تنتظر أحداً؟» ، «أخي» وعندها تنهدت : «يلعن العالم! أنا أخوك! أنا بلال!» والتقينا ببرود ، أن الآن على شاطئ البحر ، حولي رمال جرداء وفوقي شمس حارقة ، والسماء بيضاء كالورق .

حياته روتينية جداً : ينهض ويغسل وجهه ويذهب للمستشفى ويعود فيأكل شيئاً ويستحم ويقرأ في مجلات تأتيه بانتظام ، حول تركيب الدماغ على ما أعتقد . لا يتكلم إلاّ نادراً وببرود ، مهما طلبت منه لا يعترض ولا يتكلَّم .

مدير المستشفى وتخصَّص في جامعة القاهرة في الدماغ ويقول : إنَّ أبي فخور به لأنَّه الوحيد الذي نجح من

بيننا ، زوجته ممرضة لبنانية ذكية وثرثارة ، أغسل الصحون والملاعق والمطبخ معها ونتحدث ، أعتقد أنَّها تزوجته فقط ، لأنَّه مدير مستشفى ولكن . . هذا ليس من شأني على أية حال . هل تدري؟ أحسُّ أنَّني شاذ وغريب الأطوار لا لشيء إلاَّ لأنَّه صامت ، بطيء، لا يحيد لحظة عن برنامجه المعتاد . سوف نكمل الحديث في «بودابست» قريباً ، لن يعرض علي تقديم ألف دولار مقابل أن أرحل عنه هذا جيد على أية حال .
صديقك المخلص بلال» .

طويت الرسالة وحدَّقت في الحديد يتوهَّج أحمر في الفرن ، إحساس غريب لَمَّا يحدِّق الواحد في النار ، إحساس بدفء خارجي يشعل الوجنتين واليدين ولا يتعدى حدود الخد. غربة وتنويم مغناطيسي فيها . وجه بلال معلَّق في أقصى النيران صامتاً وبعيداً ، يظهر ويختفي ، وكأنني في جلسة استحضار للأرواح ، يغني متعلقاً بسقف المترو ويقهقه من غير سبب في آخر يوم له هنا : اضطرب صوته لكن في دفقات فلم أتكلَّم ولم أمنعه . فليتعلَّق بشيء ما فمن الصعب البكاء دون

التعلُّق بشيء ما .

وعاد بلال يومين فأحسست بشعره ويديه ووجهه لما تعانقنا ، وكأنني أتأكد من وجوده . قميص أصفر وشعر قصير وملابس جديدة وملوَّنة في حقائب مفتوحة هنا وهناك في بيت ماري وهي تضحك بسعادة .

«أهلا بالأخ بلال نيتشه» قال بسخرية وعانقني للحظة قصيرة ، تركت المصنع وخرجنا لمطعم ما على «الفنكتلن تو» ، لم تكن البحيرة متجمِّدة مثلما كانت عند سفر محمد ، حولها شمس وقصب وعجائز يقذفون بالخبز الأبيض للطيور فتلتقطه في الهواء ، بعض الأطفال يلعبون فوق العشب الأخضر والمطعم يغصُّ بالزوار ، راقبت كل ذلك واستمعت لقصته بعد الوداع . تجوَّلنا حول البحيرة والثرثرات المشمسة لمدة طويلة وماري تضحك وتقبله بين الفينة والأخرى .

لا أدري ماذا حدث بالضبط ولكن أذكر أنني كنت جائعاً لمدة يومين فذهبت لبيت ماري . كان غائباً في رحلة لبحيرة «بلاتون» وأنفقت كل ما لدي من بقايا

أجرة المصنع ثم دخلت في الجوع تمنيت قدومه بسرعة ، خلعت ملابسي المتسخة إلى حد ما وتناولت قميصاً من حقائبه المفتوحة هنا وهناك ، وتحادثت مع ماري لعدة ساعات حتى جاء هو ، كان مخموراً ولاحظت كيف حدَّق في القميص عليّ .

- «هذا القميص لك؟»

- «طبعاً لا!»

قلت بارتباك لأنَّه قالها بالهنغارية . معه فتاتان لم أرهما من قبل ، لعلَّه تعرف إليه في «بلاتون» . تكلَّمت معهما قليلاً بالبولندية .

- «سنذهب لسهرة في مارجيت سيجت»

قال لماري الواقفة بملابسها الداخلية .

- «أنا جائع ! أفضّل لو نمر على مطعم ما في الطريق»

قلت له ولبست حذائي .

- «قصدت نحن سنذهب وليس أنت»!

وحدَّقت فيه ثمَّ وقفت للخروج مع مشاعر لا شكل لها .

- «طيب! خاطرك!»

- «القميص!»

كان المشهد هزيلاً إلى حدٍّ ما فخلعت القميص بصمت وخرجت للشارع ، فكرت بالرجوع للمصنع ليلتها وجلست أمام الفندق نفسه ، الحشائش نفسها . راقبت الشقراوات قادمات من الصيف بأجساد برونزية . وفي الموسيقى أضواء البار ، في الشبابيك المضيئة والنيون ، ثم اضطجعت على ظهري تحت النجوم ولم أفكِّر في أي شيء . كان العالم مجرد مجموعة من الأشياء العادية التي لا تثير الألم ولا الحب .

- «مرحبا ! كيفك ؟»

جاء صوت فوقي ؟

- «أهلاً !»

أجبته بالعربية وصافحته محاولاً تذكره

- «هل تشرب شيئاً ؟ كأس بيرة ؟»

- «مع ساندويش إذا سمحت !»

- «جوعان ؟ تعال معي ! قوم» .

وتذكَّرته عندها . كردي من أقرباء مصطفى البرزاني : التقيته قبل عدَّة سنين مع «دانا» وبلال وسهرنا معه .

كان مقامراً محترفاً أيامها . يذهب لفندق «استوريا» حيث يسكن مهرّبون وتجار عرب ويتاجرون بالدولارات والملابس ولا أدري ماذا ، أيضاً ، المخابرات الهنغارية تراقب الفندق حتماً ولكن قرفت من كوني عربياً لأجل هؤلاء . أكلنا وشربنا وحدثته عن بلال دون أن يسألني .

- «العالم هيك ! مقامرة ! خذ» .

ودفع نحوي مبلغاً ضئيلاً ولكنّه يكفي .

- «خذ ! المال قحبة وأنا مقامر ! زعلان بعدك ؟»

- «يعني» .

وخرج وهو يهزُّ رأسه ويضحك ولم أره أبداً بعدها . تنفّست بعمق وخرجت من الفندق بحثاً عن سيجارة ما . رأيت عبدالله الناجي . صوته خشن وملامحه قريبة من الهنود الحمر . أصله من حيفا ويسكن مخيم اليرموك في دمشق . هذا هو كلُّ ما أعرفه عنه . تذكّرت قدرته على إلقاء الشعر بالعربية في حفلات في معهد اللغة حيث تجتمع طيور من كل جنس وقارة ، فأسمع الإبرة لو سقطت ويخيّم صمت متوتّر فوق الوجوه .

درسنا معاً في المعهد ثم انتقل لمتابعة الطب في مدينة أخرى . والتقينا مرة واحدة لما طرد من الجامعة بعد تحطيم أحد البارات وعروق يديه بالزجاج لا لشيء إلاّ لأنهم منعوه من الدخول لسبب ما .

«مجرَّد ردة فعل من الدماغ . هذا موجود في الطب ! والإنسان في تركيب دماغه على الأقل مثل الحيوانات . هل أطرد لأن دماغي هكذا ؟ ها ؟»

ولم أره منذ ذلك الوقت . وحتى عندما طلبت عنوانه ضحك ضحكته الخشنة قائلاً :

«أوروبا ! عبدالله الناجي !»

«عبدالله ! عبدالله !»

وانتبه . نهض عن درج الفندق ماداً يديه للمصافحة بحرارة : «شو أخبارك؟»

- «عملت في دول البترول عند أخي ورجعت هنا للزيارة . لا أدري لماذا أشتاق لبودابست ؟» .

- «ربَّما لأنني طردت منها !»

- «ماذا عملت ؟»

- «لاشيء» . سكنت عند أخي وكل يوم أحمل قنينة

ويسكي وأذهب لاصطياد السمك في البحر على صخور مهجورة لا يصلها أحد . صدت سمكتين خلال شهر . كان ينتظر مالاً من أخيه وشبه مفلس ولا يستطيع زيارة صديقته وجامعته السابقة . ذهبنا لقطار نصف الليل وتعهدت بالمصاريف . المحطة واسعة وخالية ونظيفة . مطعم مضيء بطاولاته الفارغة وبعض النائمين عليها . عبرنا باباً زجاجياً وانتظرنا الشاي ؟

- «أيوه !»

- «آهلين» .

رويت لـه القصة ثانية . كان الصوت وحيداً وفتاة تمسح الطاولات بخرقة بيضاء استعداداً للإغلاق . وفجأة ، في الخارج ، مرَّ بلال مع الفتاتين نفسيهما وشاب آخر . وضعوا الحقائب وجلسوا عليها وأشعل سيجارة . رأيته ورآني ولم نتكلَّم . صعدنا في قاطرة وصعدوا في قاطرة أخرى .

«هكذا تفترق الطرق . دخن !»

قال عبدالله متنهداً والأشياء تسقط خلف النافذة

المسرعة . قبل سنين أنفقنا ألف دولار في يومين وتقاسمت ما تبقى مع الشلَّة كل في طريقه بحثاً عن أكل ومأوى . وذهبت لـ «دانا» في مثل هذا الوقت وهذا القطار . لم أكن أَملك ثمن تذكرة لحجز حتى مكان أجلس فيه فوقفت في الممر وحدَّقت من الشباك . بقربي امرأة بولندية سمينة كلمتها بالبولندية ففهمتني بعد تعب ودعتني لغرفتها . معها صبيان ورجل وسيم وقوي . غنيت لهم أغنية السكارى بلغتهم ، حفظتها في بار ما وتتحدث عن فتاة صغيرة وجميلة في الغابة تلتقي صيّاداً على ما أعتقد أو بشيء من هذا القبيل . ورقصت لهم حتى اندمجوا بنبيذهم وسجائرهم فغاب حلقي من التدخين ورأسي من النبيذ وصوتي من الغناء .

«أنت بهلوان» . قالت واحدة ولمست شعري «وأنت لعبة لقضاء الوقت» وضممتها لصدري وغبنا في قبلة طويلة والكل يصفِّق ويقهقه . وسهرت حتى الفجر وافترقنا .

لما وصلت كان قميصي خفيفاً فأصبت بالأنفلونزا .

سألت عجوزاً عن عنوان «دانا» وناولتها ورقة فأشارت

في اتجاه ما . مدينة رمادية من غبار الفحم والمحطة سوداء مثل البنايات القديمة أمامي . شارع رمادي وطريل وفارغ وأنا أراقب رقم البيت .

امرأة على باب إحدى البنايات تراقب الفجر واضعة يديها على خصرها . دخلت دهليزاً مظلماً وصعدت على درجات قليلة وقرعت الجرس . خرجت «دانا» شبه نائمة وأشارت بصمت أن أدخل . غفوت حتى المساء ثم استحممت بحمام بارد ومعجنون أسنان له طعم مثل مضغ قشور الصنوبر . سافر والدها إلى البلطيق وبقيت «دانا» وأنا وزوج أختها . شربنا نبيذاً أحمر وحلواً إلى درجة مقرفة . توجع رأسي حتى انشق إلى ثلاثين شظية وبقي مكانه رغم ذلك . «دانا» ، أيضاً ، أغلقت الحمام عليها ونسيت الماء مفتوحاً وكادت الشقة تطفو فيه . نمت في غرفتي فوق مقعد وهو ينادي عليها ويضرب الباب بعنف حتى تفتح وتقفل الماء .

كنت بين اليقظة والصحو لما شعرت بها تقبلني ، فتحت عيني ببطء ولم أر إلاّ ثوب نومها يخرج عندما أقفلت

الباب . من ذا الذي وصلت به الإنسانية إلى مثل هذا الحد : أن لا ينام دون تقبيل حبيبه أو أخيه ؟ وشعرت بالشك ، سمعت السرير يهتزُّ قليلاً في الغرفة الأُخرى ويرجع الصمت ، تسلَّلت ببطء وأشعلت النور فجأة كنت يا «دانا» نائمة بقربه وشعرك بين يديه ، ودفنت رأسك بالفراش حتى لا أرى ما حدث . هل كان هذا مللاً مني أم خيانة لي لا أدري ، ولكن رأسي لا يفكر أكثر من عيني . رجعت لغرفتي وتمايلتُ من السكر . ملمس الجدران كان صلباً وخشناً ، والحمام يفيض بالماء تحت أقدامي الحافية ، والغرفة مفتوحة وسريري مكانه ، كلُّ شيء كان صلباً ، واقفاً في مكانه ، فيه قوة وخشونة ، وأنا وحدي أحاول أن أتخيَّل ما يحدث عبثاً .

هكذا تفترق الطرق والأشياء تسقط خلف النافذة المسرعة . هل اتفقتما على خطة كي أسكر ليلتها أم كان ما حدث مجرد صدفة ؟ هل كان ما بيننا حبٌّ أم مجرَّد وهم مثله مثل بقية الأوهام في حياتي؟ جمعت معجون أسناني وكتبي في حقيبة جلد صغيرة ، أردت

الرحيل بكل طريقة ولكن . . إلى أين يا «دانا» ؟ نحن . . . مجرّد قطارات مسافرة . يصمد فينا من يشاء وينزل منا من يشاء . ينام في بيته وننام دائماً في المحطة . «صدقني لم أقصد ذلك»، «المسألة مسألة ثقة يا دانا . لم يعد بيننا ثقة ولكن . . . على أية حال لن أذكر من هذه السنوات إلاّ النبيذ الأحمر فقط»؟ وأيامنا في فروتسا ، في الغابات على ضفة الجدول ، في الفندق والدانوب، كلُّ هذا لن تذكر شيئاً منه ؟ بالمرة ؟ خطأ واحد وينتهي كلُّ هذا؟»

وتدفَّقت الدموع مثل حبات الندى على رموشك الطويلة مثل سنابل القمح . وذهبنا نحن الثلاثة، في رحلة للغابات والدنيا مطر . أشعلنا النيران فأنفقت الساعات أحدِّق في الأخشاب الملتهبة : نيران صافية وكأنها من عالم آخر تذهب أرواحنا لكي تغتسل بعد الموت .

«سوف أحضر سيجارتين من بلال»

قال عبدالله وخرج إلى القاطرة الأخرى . عرض التلفزيون في المساء فيلماً عن السعودية : أطفال

بجلابيب في خيمة قذرة ، وجمل في سيارة تويوتا يتأمل الصحراء حوله .

«هل عندكم جمل ؟»

هل زوج أختك وضحك . فأجبت دفاعاً عني واضعة يديك على شعري : «لم ير جملاً في حياته . أليس كذلك ؟»

«كان معي جمل في المدرسة تخرج السنة الماضية على ما أعتقد» . وخرجتُ ذاهباً . عاد عبدالله بسيجارتين : «معه فتاتان عاريتان حتى الخصر في قاطرته . وهو يدِّخن قابضاً على النهود من الخلف . دخِّن !»

ورمى بسيجارة مشتعلة إليّ . وقف القطار ونزلنا . تلقَّى عبدالله في اليوم التالي شيكاً من أخيه وذهبنا لبار فيه طاولات رخامية ، وكرنا كالعادة فأخذ يلقي من «وتريات ليلية» : «أين نداماك حبيبي ؟ عبروا جسر السكر وماتوا الواحد بعد الآخر ! وبقيت أحدِّق في الخمرة وحدي !» بصوت خشن وسيمفوني . فقال الجرسون بالهنغارية : «هدوء ! هدوء ! ، طيب طيب !» قال عبدالله دافعاً الثمن على الطاولة . أعطاني مبلغاً

ما واشترى لي زوج أحذية من دكان مضيء وقال: «أنا سأذهب لـ«بلاتون». اذهب أنت لـ«بودابست». حافظ على نفسك. ربّما نلتقي في يوم ما، أليس كذلك؟ وتعانقنا «ربّما» وابتسم بألم. هززت كتفيه ثمّ مشيت، نظرت للوراء بعد مسافة طويلة فكان وسط الشارع الخالي تحت أضواء النيون نحوي. رفع يديه ببطء وصرخ بأعلى صوته: «أوروبا! عبدالله الناجي».

ومرّت أيام معتمة في الذاكرة، وماذا يهم؟ إنّ الحياة مجموعة اللحظات الحرجة فقط، كما قال «تسافيج». لحظة مضيئة لم تزل تتعلق بعتمات الماضي كمصباح لا يضيء على شيء: كنت في الطابق السابع في الفندق نفسه الذي عاشت «دانا» فيه. قدماي في الهواء وفي يدي كأس لبن. غرفة لصديق قديم لمحمد، وسيارات وأشجار وبشر تحتي في الشارع، والدانوب هناك في البعيد:

«وكأنّ الدانوب ينبع من قلبي:
كان حكيماً، عظيماً، عكراً!»

- «ماذا تدرس . سألت اليمني بلا اهتمام حقيقي» .

- «تاريخ !»

- «هل تحبُّه ؟»

- «طبعاً لا ! كلما خُلق حمار يجب عليك أن تدرس حياته !» اليمن على أية حال كانت خارج التاريخ حتى فترة قريبة : «تكاد إذا الأرض دارت بها لا تدور كما قال شاعر نسيته . دراسة تاريخ لا دور لكم فيه ليست سهلة» .

- «أبداً أعتقد أنها سهلة ومضحكة ، مرَّة اختصمت اليمن مع السعودية على قطعة حمراء وقامت القيامة ! وصل الجيش اليمني عاصمة السعودية والجيش السعودي عاصمة اليمن ولم يلتقيا ! ما رأيك ؟ حتى تاريخنا مهزلة !»

- «بالمناسبة ، التقيت وزير الدفاع في اليمن الجنوبية قال لي : إنه لا يقرأ ولا يكتب . لا أدري هل هذه نكتة أم حقيقة . ما هي أخباره اليوم ؟» .

- «أزاحوه أو ترك الوزارة . لا أدري . المهم طلعت عليه نكتة : بعثوه إلى موسكو لكي يثقف فوضعوه في صف

لا يوجد فيه إلاّ هو . في الامتحانات كان معدله الثاني في الصف !» .

«لا نبصر ، نحن العرب ، إلاّ الجانب المضحك من تاريخنا ؟»

«لأن الشرط الأول للتقدم هو أن نتقززّ من أنفسنا حتى نهرب منها! مسألة بسيطة! العالم الثالث يعبد أوروبا وأوروبا تعبد أمريكا وأمريكا لا تعبد شيئاً ما عدا حرباً عالمية ثالثة . فلنحوّل عقدة النقص إلى تقززٌ والتقززٌ إلى ثورة والثورة إلى احترام ذات» .

وسمعت طرقاً على الباب ؟ «ادخل» ونظرت للخلف ... فتح الباب ودخل هو .

«مرحباً نيتشه!»

قال ذلك وتنهد رامياً بنفسه على السرير وكأنَّه في بيته وواصل : لمَ لَمْ تجب : «زعلان ؟ أنت لا تفهم لماذا فعلت أنا ذلك ، لكن فكرك يعني أنا فاهم ؟ شو بعرفني ليش عملت هيك ؟» .

وفتح صنبور الماء على رأسه بعصبية .

- «بلال» .

- «نعم» .

- «اخرج من الغرفة» .

رفع رأسه من المغسلة ونظر إليّ .

- « برّه ! برّه سامع ؟ برّه ! »

وحدّق في المغسلة وأصابعه رقصت على حافتا بعنف وسرعة .

- «سامحني ! ولو . . . متأسف يا أخي !»

- «انصرف» .

- «أحس بأنَّه سيحدث لي شيء الليلة . كتبت رسالة لأهلي . هل ترسلها إذا حدث لي شيء ؟»

- «ضع قرشين على الطاولة ثمناً للطوابع وقرشاً للمترو» .

- «وبعدها ؟»

- «انتحر يا أخي ! وسأرسل الرسالة . وحياة الله سأرسلها» .

ووضع رأسه تحت الماء ثانية . صوته صار ضعيفاً ويائساً : «صدقني لا أعرف ماذا يحدث معي . خسرت أغلبية الدولارات الليلة مع كردي من أقرباء البرزاني .

هل أعرف لماذا ؟ صدقني لا ! بقيت حفنة على أية حال !
«نظرت إليه غير مصدِّق» ، لماذا لا نسافر معاً إلى
يوغسلافيا وبعدها إلى السويد ؟ وبعدها ؟ «لجهنم يا
أخي !» حتى ربنا لا يستطيع التخطيط ليومين إلى الأمام
! تريد بلال أن يفهم لماذا ؟ أنت قرأت كل مكتبات
هنغاريا ، أكثر مثقف رأيته في حياتي ، قل لي لماذا ؟
ها ؟

- «نذهب ليوغسلافيا وبعدها لجهنم».

- «بشرط» .

- «موافق سلفاً» .

- «لسنا أصدقاء ، بل رفاق سفر فقط !» .

- «موافق يا أخي» .

ودفن رأسه في المغسلة ثم رفعه فجأة وقال ببطء : «أنت
تعرف أين تطعن بالضبط . بسيطة !»

- «ماجدى ! هل تتزوجينني ؟» .

قلت لها وبصقت في النهر والريح يلوِّح شعري في
الليل على جسر «اللانس» . طالبة معي قالت أنها
تحبُّني ، عدَّة مرَّات .

- «وبعدها ؟»

ـ «نفترق سأذهب إلى يوغسلافيا ثم إلى السويد !»

ـ «وماذا عني أنا» .

ـ «نتطلق إذا رجعت وافعلي ما شئت إن حدث لي شيء . أنت حرة مهما حدث !»

ـ «ماذا عنّي أنا ؟ أحبُّك منذ سنة على أقل تقدير !»

«اسمعي يا ماجدى : أحتاج الآن للمساعدة ، الآن بالذات ، لمكان أستطيع الرجوع إليه . يلزم ورقة زواج فقط ، مجرَّد ورقة ! تكفي للإقامة هنا ! لا أكثر و لا أقل ! سأذهب معك ! »

«ماجدى» ، قلت لها بتأفف واضح ، «ماجدى . . . الحياة صعبة . صعبة جداً . على الأقل حياتنا هكذا ! لك وطن ومستقبل وعمل . ستكرهين كلَّ دقيقة معي . نفترض أننا افترقنا في السويد لسبب ما ، صدفة ما ، ماذا سيحدث . نحن رفاق سفر . عليك السفر وحيدة . قد نلتقي وقد لا نلتقي . أنت حرةٌ ومستقلَّة عني» . «أنت أناني . مجرَّد أناني . ما حاجتي لزوج غير موجود في هذه الحالة ؟» «ورقة فقط ، حتى لا أتشرَّد بين الدول يا بشر ! ورقة ، يلزم ورقة ، ورقة

وليس زوجة !». «أنا أحبُّك ! هل يعني ذلك شيئاً بالنسبة لك ؟ ها ؟». «لاشيء على وجه الإطلاق!».

غفوت في القطار اليوغسلافي وحلمت أحلاماً متشابكة وقلقة . حلمت أنني ملقى قرب بركة صافية ، في بقعة خضراء تحت الشمس ويداي تحت رأسي . غريق يا جماعة ! هيه ! غريق! ورجال يركضون من البركة وإليها والماء عميق ومخيف وأمطرت الدنيا عليهم : غريق ! غريق ، وأخرجوا طفلاً متجمداً ويابساً مثل قطعة جمجمة مهترئة ورموه بقربي . فتدحرج بقربي ، هل مات ؟ لا أمل بالمرَّة ؟ ها ؟ ها ؟ ها ؟ انتهى كل شيء ؟ ها . «أبداً لم أزل حياً !» وجلس فجأة تحت الشمس وهو يفرك يديه ويضحك . واستيقظت على بلال وهو يدخِّن وينظر عبر النافذة المظلمة ورتابة الهدير . وامتزج وجهه ببقايا الحلم والضوء الأصفر في الغرفة . كأنَّني رأيت هذه البقعة الخضراء في مكان ما ، ولكن ولكن أين ؟ بقعة في منتزه «فروتسا» . . هذا هو . . منتزه «فروتسا» ! كنت في تلك الحفلة في الكلية الجامعية . نزلت إلى قاعة الرقص بحثاً عن أية

امرأة لعبور الاغتراب الليلي ، نزلت على درج قديم ومظلم ، على الجدار صورة ضخمة لكارل ماركس بلحيته ووقاره . حدَّقت في عينيه للحظة قصيرة . دائماً كنت أحدِّق في عينيه بالذات وأشعر بالثقة ، بأن العقل فيه ما يكفي من القدرات حتى يستوعب التجربة . على مدخل القاعة رأيت الفتاة وفقدت الاتزان والثقة ثانية .

شعرها الأسود جداً حول وجه شبه دائري .

«شفتاها ؟ كيف كانت شفتاها ؟

ليتني طير على شبَّاك سجين لأراها !»

تبيع التذاكر للداخلين والجمال للخارجين كلما التقيت بها في الجامعة كنت أرتبك . والآن ها هي . . في قاعة الرقص . . . فرصة مناسبة بالتأكيد !

«رقصة» .

«شكراً . أبيع التذاكر !»

وارتبكتُ ثانية .

«هل يفهم الهنغارية ؟»

قالت واحدة لصديقتها . «ربّما ! لكنه وسيم جداً !

ردَّت الأخرى .

«رقصة واحدة فقط !»

«لماذا معي بالذات ؟ عندي صاحب على أية حال !» وضحكت الفتاتان حولي . «طلبتك أنت وليس البقية !»

«فقط رقصة واحدة !»

«فقط !»

وشعرت بالإهانة وفي مكان ما قرّرت أن أنتقم منها . جلستْ بقربي في القاعة حتى تنتهي الأغنية الأولى وانتهت . وابتدأت رقصة ثانية وثالثة ولم أتحرَّك . وفجأة تركتها جالسة وراقصت فتاة ثانية تلبس ثوباً خفيفاً يجعل ملمس الأودية حاراً وواضحاً .

وأحسست بيد على كتفي : «برقية لك !»

وعرفت أنَّ «دانا» قادمة غداً لمنتزه «فروتسا» . «دانا» قادمة ؟ وضحكت بعمق وانتظرت شبه نائم وشبه سعيد .

الدنيا شمس والمنتزه هادئ بين الجبال التي تغطيها الغابات ، وبحثت عنها بين بيوت الخشب الصغيرة رأيتها اقتربت ببطء ، خطوة خطوة ، كسرتُ عوداً جافاً

وصغيراً بين أصابعي عدة مرّات ، عبرت قناة ماء جافة وكنت خائفاً . وقفت أمامها ولم أتكلّم . انحنيت وقبلتها قبلة فاشلة وسريعة فازداد الصمت ولم أعد أعي إلاّ الشمس وصمتها .

- «دانا ماذا حدث ؟»

قلت ببطء واضطراب .

- «لم تأت للمحطة !»

- «أية محطة ؟»

- «محطة بودابست لتراني . نزلت فلم أجد أحداً»

- «البرقية تحدثت عن فروتسا ، جئت هنا مباشرة !»

- «والقطار يمر من بودابست !»

- «آه !»

لا أدري كيف فاتني فهم ذلك ولكن فوجئت بالقصة . «آسف ! دانا آسف ! لم أقصد ذلك» .

وحاولت تقبيلها فأشاحت بوجهها ونامت تحت الشمس . لم يكن هناك شيء لكي أفعله فمشيت مبتعداً . . . مشيت بلا انتباه ولا هدف حتى وصلت لتلك البقعة الخضراء تحت الشمس بقرب الأسلاك الشائكة .

نمت على الشمس والعشب وحاولت أن أبكي ففشلت . وهمست لنفسي بما قاله ناظم حكمت لنفسه :

«كان اليوم يوم الأحد

لأول مرَّة أخرجت إلى باحة السجن !

تعجبت لأن السماء زرقاء إلى هذا الحد

ولأنها بعيدة عنِّي إلى هذا الحدِّ ، أيضاً !

اتكأت على الجدار تحت الشمس

الآن لا أريد امرأة

ولا حرية

أنا والشمس والجدار ،

وإني لسعيد» .

لماذا تظهر البقعة الخضراء في حلم في قطار؟ ما الذي يعنيه الطفل؟ من هو منقذه ولماذا أنقذه ثم رماه بعدها ؟ وماذا تعني البركة والخروج من البركة ؟ هل تعني الخروج من الرحم؟ الماضي ؟ الجليد ؟ لماذا يجب أن نكون غامضين إلى هذا الحدِّ، أيضاً ؟

- «ها يا بلال ؟»
- «شو ؟»
- «لماذا يجب أن نكون غامضين إلى هذا الحد ؟»
- «ألا يوجد جواب في الكتب يا نيتشه؟»
- «لا»
- «إذن أبحث في الحياة!»
- «كيف ؟»
- «الإنسان هو القضية كما قال كنفاني والإنسان ليس في الكتب !»
- «أين ؟»
- «في البارات والمناجم والشوارع . أبحث عنه هناك» .
- «هل تدري ؟»
- «ماذا ؟»
- «عندما ودعت أبي قال لي كلمات لا أنساها إلى الأبد. قال لي : اسمع ! العالم واسع ! إذا ذهبت للبارات تجدها مليئة ، وللكنائس والجوامع مليئة ، والمدارس والمكاتب وأماكن الدعارة والجريمة مليئة ... كل مكان مليء بالناس . الناس طرق فاختر

طريقك الخاص» .

- «هل وجدته ؟»

- «لا أدري»

- «لماذا ؟»

- «لأنني أبصر أعمق مما يجب كما قال باريوس !» . «أبي قال لي كلمة واحدة : ستندم . لا أريد أن أراه إذا ندمت ، فمن الصعب معانقة الشيخ هذا وأنت فاشل ! يلعن العالم ! لماذا نفكِّر نحن فقط ، في هذه الأمور؟ هل نحن معقَّدون ومختلفون إلى هذا الحد عن بقية خلق الله ؟»

- «ماذا سيحدث لو فشلت أنت وأنا ؟»

- «ننتحر على ما أعتقد !»

- «سخافة ! نبحث عن بداية أخرى» .

- «هذا سخف ! قل لي يا نيتشه أين سنذهب إذا لم تقبلنا السويد وانتهت التأشيرة ليوغسلافيا ؟»

- «كما تهوي بنا الرجْل !»

ومشيت . طريق طويل حوله شجر وبنايات ملونة ، قصيرة وطويلة ، قديمة وحديثة ، جميلة وبشعة . وصلنا إلى فندق قديم ومنعزل ، عند طاولة الاستقبال

فتاتان مراهقتان . حمل صبي حقائبنا إلى غرفة كبيرة وباردة ، متجهمة لسبب ما ورائحة المراحيض تصل عبر الممر المظلم . استلقيت وحدَّقت في السقف ودفن رأسه تحت المخدَّة حتى يفكِّر في حل . السفارات مغلقة لمدة يومين كاملين . تجوَّلنا قرب محطة القطارات حيث تلتقط السائحات الصور لفلاحات يجلسن قرب سلال الخضار والدجاج على الأرض ، وشربنا الخمرة في دكان معتم وسرنا في المطر . شارع طويل فيه بناية من الزجاج الأسمر ، يصعد للأعلى والإسفلت يقهقه فيه الماء المتعكر . وقفنا تحت مظلة صفراء تعطلت أمامنا بالضبط فيها امرأة تلبس قميصاً خفيفاً ووجها نظيفاً ، ورجل بياقة بيضاء : نزل ونظر للعجلات باشمئزاز وبعد دقيقتين كان يستلقي على الإسفلت في أتعس وضع ممكن .

«نساعده ؟»

«لسنا وحدنا في المطر ! وأخيراً ابتل الآخرون !» قال وضحك ضحكته التي أحبها . ورفضت السفارة السويدية بعدها . «قد تأخذ فيزا وقد لا تأخذ . بعد

شهر تجيب حكومة السويد!» قالت موظفة شقراء أمام آلة كاتبة . وخرجنا راجعين للفندق في الطريق نفسها . عند محطة القطار فتاتان تتأملان الصور وتتهامسان ، وزحام هنا وهناك حول القطارات .

- «ما رأيك ؟»

- «اذهب أنت ! صرت أتوقع الرفض من كل شيء !»

- «صورة حلوة» .

قلت بالإنجليزية وناولت واحدة صورة لطفل ، حذاؤه قديم وثيابه مشردة ، وتغطي وجهه قبعة سوداء تتعلّق لقمة رأسه .

- «الأخوات من سويسرا !» صرخت في اتجاه بلال .

- «نأخذ العنوان ونذهب لسويسرا . جهنم !»

- «الدولارات قليلة» .

- وصعدت الفتاتان إلى القطار فصعد هو ، أيضاً :

- «وين ولا ؟»

- «لأي مكان معهما !»

- «مبروكة على موظف الفندق» .

وسحبته من شعره وقميصه حتى سقط على درجات

القاطرة فنهض وضربني بكلّ قوته على وجهي فتلافيت الضربة ثمّ ضربته على صدره ليهدأ فتعاركنا بقوة لمدة قصيرة بالأيدي والشتائم ومشى القطار .

- «أنت سافل ، مبتذل وغبي ! سامع ؟»

- قال وهو يصكُّ على أسنانه .

- «طيب ! تعال نشرب بيرة !»

«اقتراح معقول ! وين ؟»

ورجعنا للفندق . فندق غريب لم أر مثله في حياتي

«العشاء إجباري» قال موظف الاستقبال .

«نريد أن نجوع . عندك مانع ؟» ردَّ عليه بلال «طبعاً العشاء ضروري !» «يحرق العالم!»

وأخيراً ، على طاولة العشاء ، جاءت فكرة ونحن نشق قطعة الزبدة بالسكين : نذهب لبرلين لأنها دولية ، أنا بالقطار عبر «بودابست» وهو بالطائرة ، ونلتقي في «براغ» ثم معاً لبرلين .

- «أين بالضبط في براغ ؟»

- «ألا توجد ساحة عامة ، أعني يوجد مركز لكل مدينة ، أكثر الساحات ازدحاماً وحركة ، نلتقي في

المركز يا أخي» وتودعنا دون عناق ، فقد كنا نكره لحظة التوديع جداً ولكنها لسبب ما تكرّر دائماً .

رجعت لـ «بودابست» من جديد ممزوجاً بأتعاب القطاراتَ الرمادية . وقفت على جسر «اللانس» والريح تلوِّح شعري وأضواء النيون هنا وهناك تترك ممرات من الظلال وحدَّقت في «الدانوب» بصمت . واقترب من آخر الجسر شبح ما يلمع ويختفي ويسير ببطء . توقَّف في نقطة قريبة وحدَّق في النهر بصمت ثمَّ مشى وتوقف . هل سينتحر؟ سألت نفسي . واقترب أكثر . فتاة تلبس بنطلون كابوي كالح وشعرها طويل وجهها مجعَّد ، ابتسمت لي . أسنانها صف منتظم وصغير ولمع تحت الضوء . مشيت معها ولم نتكلَّم ولم نسرع . نمت في حديقة عامة ليلتها ، على مقعد خشبي حوله البرد والأشجار تهتز في الفضاء ، والقمر كالوجه المستدير في الأفق الأزرق . جلست بقربي ووضعت رأسها في حضني في لحظة غامضة جداً . ومرَّت ساعات والقمر يغيب ببطء ويدها فوق يدي . نظرنا لبعضنا وابتسمنا . فتحت فمي حتى أتكلَّم

وضعتْ إصبعها فوقه وهمستْ مثل حفيف الشجر الغامض : « انظر هناك ! الأفق مثل الشمبانيا الحمراء لما تمتزج بلون ذهبي ، وفيه مسافات خضراء . فوق رؤوس صامتة ، وصوت طيور تنتقل بين حفيف الشجر وأجسامها في الشفق ، نحن وحدنا هل نسيت ذلك يا حبيبي ؟ أنت الآن تجلس فوق صخور حمراء وتحدّق في طيور خضراء في الأفق .

أنت تعبر جسراً الآن وفوقك نسر أسود في شكل غيمة ، وفي الجبال المقمرة المحيطة بك تلال بيضاء تلمح تحت القمر ، فتاة تلبس ثوباً خفيفاً أزرق وترقص بهدوء وتغني لك . تعال ! تعال ! حنطت الليلة أمي ولم أزل أذكر جثتها في الكفن في الصالون . تعال ! سأبعث أختي عندها في هذه الليلة! «وقفزتُ عن المقعد فحدقتُ فيها برعب فقهقهت تحت القمر وسَرَتْ في الأشجار رعشة رعب . وعلى أغصان شجرة صنوبر برقية معلقة بخيط . قطعتها وقرأت : «أنا في برلين . انتظر أخرى . بلال!»

ولم أفهم ما حدث حتى جاءت أخرى بعد أسبوع

تقريباً: «نمت في المراحيض العامة». دفعت ما تبقى لأحد المحامين وخرجت كلاجئ سياسي من الحرب اللبنانية إلى ألمانيا الغربية - الحياة جحيم هنا، انتظر! ولم أفهم ما حدث. اتصلت بماري فقالت: إنه شخص ساقط ولا يربطها رباط به حتى قبل سفره بكثير: «عندما يصر على مضاجعة عاهرتين معاً في نفس غرفتي أنا، صاحبته، فهو شخص ساقط» وأقفلت الخط.

فتاتان عاريتان حتى الخصر في قاطرته وهو يقبض على النهود من الخلف. دخِّن! «لمعت في الظلمة مثل ذكرى من الفسفور كلمات عبدالله الناجي. ولم أجد إلاّ الانتظار! مكتبة المتحف بناية قديمة حولها سور من القضبان وحدائق عشب وأشجار عالية. جلست على مقعد تحت الشمس حولها وراقبت الحمائم تقفز وتطير في الساحة رافعة رؤوسها للأعلى. عجوز يتجوَّل مع كلب صغير. شعره أشيب ويتجوَّل بسلام، في الأربعين أو الخمسين من عمره. جاءت إلى شابة تلبس بنطلون كاوبوي كالح وفي يدها عدة كتب. همست

بذهول وبأنفاس متقطعة مانعة شعرها بيديها من لمس وجهي ، بأن هذا «لا تينوفتش زولتام» ، لا أذكر الاسم الذي لفظته لي .

- «ويعني ؟»

- «يعني أشهر ممثل في هنغاريا !»

وتأففتْ من برودي وجهلي . نظرتُ للعجوز بدقة . يداه في جيبه وكلبه يهز ذنبه .

- «هل تعرف يوجيف أتيلا ؟»

قالت بشك فأجبت متنهداً من الملل ؟

- «طبعاً ! قرأت جميع أشعاره» .

وازداد شكها فبحثتُ عن منديل في جيبي اليمنى :

- قرأت مثلاً قصيدته التي فيها :

«ابعثوا لي ولو كتاباً أبلهاً أكاد أجن من هذا الليل الناعم مثل الفأر» .

ضحكت من لكنتي الأجنبية على ما يبدو .

-«تعرف أنه كان مصاباً بانفصام الشخصية . وأنه انتحر تحت عجلات القطار ؟»

-«أعرف» .

ضحكت قائلة : «هذا الممثل يعبد يوجيف أتيلا» .

«بشر يستحق العبادة . كان شيوعياً وتجوَّل حافياً في الشتاء أمام دكان تباع أشعاره فيها حتى يرى أحداً يشتريها ! لم يشترها أحد ! وليس هذا مؤلماً ؟» «تعرف هذا ، أيضاً؟»

ولم تصدق أذنيها . لكن رغم ذلك لم يتغير انطباعي عن الممثل : مجرَّد إنسان ! تجوَّلت في الأيام التالية في الساحة نفسها ورجعت لعادتي القديمة : الدوام في المكتبة من الصباح حتى الثامنة ليلاً وحافظت على علاقتي بالجامعة عبر مطعمها ، نزلت من الكلية صباحاً والشمس دافئة خلف الشبابيك . «رسالة لك» قالت الحارسة. في الغرفة تبدو الرسائل قادمة من العالم الخارجي وكأنها رميتْ من فوق سور للداخل .

«أنا الآن في معسكر شونيك للاجئي الحرب اللبنانية ، بالقرب من «فرانكفورت» . عملت في تعبيد الطرق وحرضت العمال على المطالبة بجزم مطاطية وكفوف ضد البرد ونظمت إضراباً عاماً لهم . حصلوا على مطالبهم وطردت أنا . الحياة زِفت هنا . يعطون الواحد عدة مئات من الماركات شهرياً ويبحثون له عن عمل .

نصيحتي أن تبقى حيث أنت ! ابق حيث تشاء ولكن
ليس هنا! اكتب يا حيوان بسرعة فالحياة لا تطاق هنا .
كيف حالك ؟ وماري ودانا ومحمد ؟».
ومشيت شارداً. شعرت أنه صادق معي. لا يستطيع
بلال نسيان انتمائه : إضراب عام قال! أفكاره مفككة
ولا يستطيع التركيز. وواصلت القراءة في قصة
«الأبله». مررت على ملعب على اليسار وحديقة خالية
على اليمين في شارع جانبي معتم نوعاً ما. سمعت
صوتاً ينادي عليَّ من الرصيف المقابل فانتبهت ولم
أصدق ما أراه . . «زوشا»؟ وركضنا إلى بعضنا .
قفزتْ علي وتعلَّقتْ بكتفي فحملتها ومشيت أضحك
في دفقات ولم أستطع الكلام والانتباه لغير عينيها .
معها واحدة أخرى . . . «دانا» ؟ ولكن لم تكن هي ،
بل فتاة عادية سلّمتْ عليَّ ببرود ولفظت اسماً نسيته
في الحال. أنزلت «زوشيا» من خيبة الأمل في يدي
وسرنا بصمت . تجنبت الأسئلة . وجبة قوقازية
اخترتها بالصدفة وكنت شارداً .

-«هل ترى بلال ؟»

- «في ألمانيا الآن ! . . . لن نلتقي ثانية على ما يبدو» وعبرت سحابة في حنجرتها . «ودانا ؟» سألتها باقتضاب وعدم اهتمام .

- «لا تعرف أنك هنا ! أحياناً نتصل بالتلفون . لقد تزوجتْ وانتقلت إلى مدينة في الشمال !»

- «منذ متى ؟» .

- «عدة شهور» .

وخرجنا بلا كلمات وخيم صمت متوتر .

«زوشيا» ومددت يدي للوداع ، «زوشيا» هل أسألها عن عنوان «دانا»؟ عن سلام على الأقل؟ «زوشيا» ! . . رحلة طيبة يا «زوشيا»! رحلة طيبة!»

وشعرت باختناق ورغبة بالبكاء فضغطت على يدها مشجعاً ومشيت . لم أر شيئاً إلاّ الأشكال الهلامية للأشياء .

«جريدة! جريدة! جريدة!»

ودفعت بقرشين إلى يد سلّمتني شيئاً ما فنظرت إليه . خطوط سوداء ومتعرِّجة مثل . مشيت . . . مشيت . . . مسحت الدموع ونظرت للسرب من

جديد : «انتحار لاتينوفتش زولتان تحت عجلات القطار» .

كلُّ شيء كان دوَّامة . لقد انتحر إنسان . . . إنسان متعب ، وصادق مع نفسه وكلبه . كتلة هلامية من الوجوه والضجيج تتقلَّص وتتمدَّد ، تقترب وتبتعد . ومشيت . . مشيت بلا رغبة ولا تفكير ولا انتباه ولا توقف لمسافات لا أذكرها . شارع من الأشجار المتشابكة لا يعبرها إلا المساء البارد ، توقفت فيه قدام بوابة حديدة . فتاة صغيرة تلعب قدَّام الدار ، مثل أختي الصغرى بالضبط ، وضعت وجهي على الحديد وراقبتها لمدة طويلة بصمت وتعب . وانتبهت عَلَيْ فتركت لعبتها واقتربت من الباب بابتسامة دافئة :

- «تريد شيئاً يا عماه ؟»

- «أبداً ! أحب مراقبة الأطفال فقط !»

- «هل أنت من هنا ؟»

- «من بلد بعيد جداً» .

ومدَّت يدها للمصافحة . يدها صغيرة وبيضاء ودافئة ، وهزَّت رأسها ضاحكة ضحكة مثل الشوكة الرنانة .

«عندما تشرق الشمس فوق الأرض المغمورة في الثلوج . . . هل تحبين اللعب ؟» «طبعاً ! مرَّة صنعت طفلاً من الثلج وقبلته وعانقته . . . وذاب في اليوم التالي !»

وضحكت ببراءة .

«طيب ! . . تذكَّري عندها هذه اللحظات . . أنا ، أيضاً ، أحب أن ألعب بالثلج . . . فلنتودَّع الآن!» وغطاء من الدمع الشفاف نزل فوق عيني مثل الستارة بعد نهاية المسرحية . . لم أردها أن تلاحظ ذلك .

منحتها قبلتين على الجبين واستدرت ذاهباً . وصلت إلى غابة تقف غامضة والأفق يشتعل مثل غبار الذهب المصحون ، والضباب أخضر في جوانبه . أسراب طيور مهاجرة تتماوج فوق مسافات لا يعرفها إلاّ المجانين والأنبياء .

دخلت في الغابة الزرقاء والأقدام مظلمة خلفي . ووصلت إلى نهر «الدانوب» وحدقت في نقطة واحدة لا قرار لها ، نقطة تدور مغلقة على نفسها في نهر «الدانوب» الواسع .

نزلت للماء ومشيت فيه ببطء حتى لم أعد أبصر إلاّ المياه تمتد حتى اللانهاية . «الماء طريق الغرباء» ، يبتعد ويتسع ولكنه الطريق الوحيدة . عبرت «الدانوب» لم يصل الماء إلاّ لركبتي ، وعبرت غابات لا أعرفها بخطاً واسعة حتى وصلت إلى البحر الأبيض المتوسط ودخلت فيه . الماء يبتعد ويتسع ولكنه الطريق الوحيدة .

في وسطه أدركني الغروب : شفق ينعكس فوق وجهي وغموض والماء حولي . يد في جيب معطفي ويد تدخن السيجار . ومشيت . . أسماك القرش تبتعد رفوفاً خائفة مني ، وضعت يدي على رأس قرش عجوز فابتعد وهو ينظر نحوي بقلق مثل طفل البحر . وأخيراً لاحت حدود الوطن الضائعة : غابات وجبال مقمرة وفوقي النجوم وخلفي البحر وتحتي الأرض وقدامي جبال الطفولة : كل شيء يقف الآن في كماله . لا ينقصني إلاّ عيناك يا «دانا» !

« تنامينَ قربي على شاطئ الذاكرة

فيخرجنَ منا نساءٌ ليسرقنَ قمصاننا

ويهربنَ للغابة الساحرة !

تحت لبلبة نحتفي

ونرنو إلى غسق ينسدلْ

نرى في الظلام نساءً

تخوضْ الشواطئ

تنادي على بعضها

وتلعبُ في الضفة المقمرة ! .

تعالي . . . إننا شرَفاتٌ كثيرة !»

بين هدير البحر وتحت نجوم الاغتراب وبين جبال الطفولة المقمرة يستلقي على ظهره أوتوستراد حيفا - تل أبيب ، تسلّلت إليه بين الشجر لعل شاحنة تهرّبني لرام الله . وقفت وحيداً تحت سرب مصابيح صفراء تبكيْ فيه بين يديّ البحر . سرت مرهقاً ويداي في جيبي على رصيف الرمل وقلت : «أرض الله شائكة وليس في قدميك نعل» .

والمسافات استطالت تحت المصابيح في الخارج . «دانا» وداعاً ! هذا حبيبك فوق الرصيف غريباً ووحيداً ويداه في جيبه .

«بلينا وما تبلى النجومُ الطوالعُ

وتبقى «ألمانيا» بعدنا والمصانعُ
لعمرك ما تدري الضواربُ في الحصى
ولا زاجراتُ الطير ماالله صانعُ» .

ووصلت حيفا ، مدينة لم أرها في حياتي . شوارعها الخالية أذكرها جيداً والأوراق المرمية في الساحات أذكرها جيداً ولكن لا أعرف المدينة ولا الشارع ولا البيوت . أزقة مضيئة بمصابيح صفراء من القلق في ساحات تتفرع منها الأزقة مثل متاهات صمَّمها مهندس خاص لمشرَّدين من نوع خاص . حالة من حالات الوعي جاءت إليَّ تشبه فقدان الذاكرة . واصلت السير ضارباً جبيني عدة مرَّات حتى أستيقظ إن كنت نائماً ولكن عبثاً . من آخر الشارع ضوء ساطع برز فجأة وهدير محرّكات فتوقفت كالأعمى . أحاط بي جنود مموهون كالأشباح دون ملامح خاصة ومميزة إلاّ تمتمة خائفة لا أفهمها : «مازيه أورى» ، سأل جندي شبه نائم في شبه نائم في سيارة الجيب المكشوفة لما ألقيت فيها على حديد بارد .

«خبلان» ، قال أورى وجلس بقربي .

وأسرعت السيارة في أزقة مظلمة ورياح باردة . قميصي كان خفيفاً والريح تخفق فيه حتى تشنَّج وجهي وصارت كلُّ عضة في جسمي ترقص برداً لوحدها بطريقة لا إرادية مهما حاولت أن أمنعها . لم أعد أبصر شيئاً ما عدا الجنود النائمين على رتابة الهدير . وتذكَّرت حادثة ما في الطفولة مرَّت في جبيني مثل فأر خائف على أرضية سقيفة مهجورة تذكَّرت كيف خرجت من البيت ليلاً وسرت في العتمة عدة خطوات ثمَّ توقفت حتى يذهب تأثير الضوء من عيني فأبصر الأشياء على حقيقتها وكما هي بالضبط .

وفجأة رأيت شخصاً غامضاً وملفَّعاً بالسواد واقفاً على درج البيت الخارجي يقول : «تعال ! تعال ! تعا . . . ل». تشنَّج وجهي وارتجفت مثل هذه المرَّة بالضبط . بهدوء خادع ، الباب خلفي . كنت شاحباً ولا أستطيع الكلام وشبه غائب عن اليومي . عانقني على الباب برعب . «لا توجد في الخارج إلاّ العتمة» قال أبي لأمي «بسيطة يابا ! بسيطة ! مجرَّد خوف من العتمة فقط» وغرس يديه في شعري بحنان . كتلة مثل

جدار كثيف من العتمة كنت أراها خلف الباب الذي سينفتح في أية لحظة ثمّ يدخل الشخص . «خوف من العتمة، يلا ! بسيطة !» قال أبي وضحك . وأدركت عندها أنني أرى العالم بطريقة مختلفة . دائماً كنت أرى الأشياء بطريقة مختلفة . حدّقت في الظلمات وفي وجه «أورى» تحت رتابة الهدير .

الجنود يتأرجحون شبه نائمين والإرهاق على وجوههم. ضوء خفيف في مقدّمة السيارة وضابط يلعب بالمسدس في جيبه ويحدّق في خارطة ما. لحيته كثّة ورمادية الشعر . توقّفت السيارة وقفز الضابط منها ولحق البعض به نحو زقاق فيه ضوء ساهر وبيوت صفيح وصناديق قمامة . قفزت قطّة من برميل قمامة كالبرق عابرة للجانب الآخر فأطلق الضابط العجوز طلقة تائهة، إنّه عجوز والمغامرات الوهمية تعطيه لذّة فأطفأتْ بعض الشبابيك ما تبقّى من ضوء فيها .

وساروا من جديد بلا أية كلمات أو أحاديث فعاد الصمت الخادع يغمر الشجر الهارب والأرصفة وعاد الضابط للخارطة واللعب بمسدس .

تذكّرت قصّة ما لـِ «همنغواي» لم أعد أتذكرها

بالضبط ، قصةّ عن امرأة ورجل من لندن تزوّجها لأنّها غنية وتزوّجته لأنّه شاب ، قصةّ من هذا القبيل . ذهبا لاصطياد الأسود من غابات إفريقيا هرباً من الملل والروتين أو من نفسيهما على ما يبدو . وتعرّفا إلى صياد عجوز يعيش من صيد الأسود هناك . جرح الزوج والصياد أسداً فاختفى بين الأشجار الكثيفة وبحثا عنه . زمجر استعداداً للهجوم فتجمّد الزوج رعباً ولم يطلق ولا حتى طلقة واحدة في الهواء .

احتقر نفسه واحتقرته زوجته . لقد أدرك ، أيضاً ، جبنه قدّام الحياة نفسها ، قدّام سنين زواجه السابقة جميعها . وأخيراً جرح الصياد وحيد قرن فاختفى ، أيضاً ، خلف هضبة ما وجاءت فرصة الزوج لكي يتعلّم شيئاً عن الجرأة . نصحه الصياد أنّ ينحرف عن خطٍّ هجوم وحيد القرن ويطلق النار عليه من الجانب ، على الرأس والصدغ مباشرة ، وإلاّ فإنه لن يصيب إلاّ القرن فقط ، ويدفع عمره ثمناً لذلك . أمّا الحيوان فكان يستجمع كلّ قوته الماضية والباقية ، وكلّ دمه الذي لم ينزف بعد ولكن ليس للنجاة بجلده وقرنه الوحيد ، بل ليخوض

آخر معركة في وجوده ، معركته الفاصلة واليائسة حيث سيعرف قاتله وجهاً لوجه .

واندفع جريحاً وهائجاً والرصاص ينشر قرنه المتهدِّم لكنَّه يتقدم . والزوج لم ينحرف جانباً ، بل أصر على التحجُّر في المكان نفسه ليدفع الثمن نفسه في معادلة متوازنة للمرة الأولى ، لحظة في قمة الدِّقة ، بين ثور لم يعد من خيار لديه إلاّ الدفاع الحياة بما تبقَّى من حياته وبين جبان قرَّر ، أيضاً ، أن يصل لقعر ذاته . عندها فقط ، فجرت الطلقات رأس الزوج من الخلف . قتلته زوجته التي مولَّته لأنها أدركت انَّه الآن سيتركها تشيخ وحيدة في شقَّة منسية في ضواحي لندن . لا أدري لماذا أعجبت جداً بوحيد القرن ، بتلك القوة الداخلية الخارقة التي تختار دمار الحياة على حياة تعاش بجرح وبقرن وحيد . وتطلَّعت لـ «أورى» بصمت وفي داخلي معركة بين جبان ووحيد قرن .

قال ولما لم أجب دفعني دفعة خفيفة بيده كأنَّني امرأة وواصل التدخين وواصلت الصمت . وتوقَّفت السيارة في ساحة واسعة ومضيئة من الإسمنت لها أفق

من أسلاك شائكة وأشجار مظلمة حول محيط الضوء البعيد . أنزلني من السيارة جندي صغير لـه وجه أنثوي دقيق التقاطيع ويده ملفوفة بالشاش الأبيض حول جرح ما ، ربَّما حول جرح نرجسي . حدَّق وهو يدخِّن بعصبية في جدية الوجه ، تلبس قميص كاكي مشمَّر الأكمام عن لحم طري فيه تلمع ساعة ذهبية . شعرت بشهوة عابرة فيها نبض حرية وتطلَّعت للأعلى .

بناية مموهة وشبابيك مضاءة . مكاتب التحقيق على ما يبدو ، كنت في حالة من التوقُّع والحذر ممزوجة بلا مبالاة وضربني جندي من الخلف . . . والريح تدخل بنطلوني الواسع باستخفاف بارد «تعال ولا !» قال ذو الوجه المخنَّث ونفخ بسرعة مصراً أن ألحق به . صعدت دهاليز لولبية الدرج ونزلت أخرى . رنَّت الساعة معلنة الثانية بعد منتصف الليل . سحب «أورى» مسدَّسه وفَتَّشني الوجه المخنَّث بنرفزة ظاهرة . كانت الزنزانة مظلمة ولم أبصر إلاّ شبحاً يطمر نفسه بشيء ما ويشتم غاضباً من شيْ آخر ، جلست على برودة الأرض في انتظار تعود العين على الظلمات .

- «خذ ولا» .

وسقطت على بطانية من الزاوية الأخرى . لم أتكلّم تلفّعت بها وأحسست بشيء من الدفء .

ـ «شو تهمتك ؟» .

جاء الصوت مثل أجنحة صراصير تتكسّر في الظلمة : تك! تك! تك! دار المفتاح في القفل وغمر الزنزانة ضوء من خارج فأبصرت البقية : كتلة ما تحت بطانية قديمة تدّعي للنوم في الزاوية ، وكتلة أخرى في الزاوية الأخرى تشبه لوحة لـ«فان كوخ» في آخر أيام جنونه . وجه نحيف عليه جلد فقط ، وعينان واسعتان ورأس حليق وفم مفتوح وأحمر مثل مصيدة الذباب . لا أدري إن كان مجنوناً أو عاقلاً أخذ يحبو على قدميه ويديه تحت الضوء وهو يربط صرصورين بكمّ قميصه . فجأة ضحك ضحكته الهستيرية ونظر للضوء القادم من الخارج وهو يشير إليّ بيده وكأنه يلفت نظري للضوء . حدقت في حلقومه الأحمر وأسنانه الصفراء . توقّف فجأة ونسي فمه مفتوحاً وهو يحدّق فيّ بدهشة وكأنّه يراني لأول مرّة ، شعرت بالخوف منه . ليس منه بالضبط ، بل للحظة قصيرة تخيّلت أنّه أنا أو أنّني هو ،

كأنّني قد التقيته قبل أن أراه .

وتذكّرت الشخص الواقف في العتمة ملفّعاً بالسواد يقول : «تعال ! تعال !» بسيطة مجرّد خوف من العتمة قال أبي ، أعتقد أنني لمحت هذا الوجه عندها . حدّقت في لوحة «فان كوخ» بشك ، في صراصيره وبوله وفمه ، في ملابسه المهترئة وهو يزيح الغبار وفي ضحكته كأنني التقيته قبل أن أراه . ومددت يدي نحوه بخوف حتى ألمسه فابتعد خائفاً هو الآخر وضحك ضحكته الهستيرية تلك . وتحركت الظلمة في الزاوية الأخرى فانتبهت .

«ولا» قلت للثالث بعدوانية لم أتعوّد عليها «ولا ! أنت نايم ؟» «شو ؟» «أنا وين . يعني أنت وين ؟» «شو ؟» . وجاءت الشين منه غريبة مثل من يلتقط همساً ضائعاً من أعماق بئر ، انكمشت على نفسي حتى أصبح نقطة غير موجودة في المكان لأن أصل الكون نقطة ، عينان ثقيلتان من النعاس ومعدتي فارغة وعندها تسلّل القمر من الشباك صافياً ومستديراً فأحببت ذلك : «قمر ! قمر !» وركضت للشبّاك فلامس وجهي برودة القضبان

ولم أنتبه له .

أسنانه بيضاء وفي عينيه بريق جذَّاب . وخلفه على الجدار يسقط القمر مقطعاً بظلال القضبان إلى مربَّعات . في كلِّ مربَّع كتابات كثيرة : أسماء سجناء سابقين وتاريخ اعتقالهم وتهمهم ، مئات السير المتداخلة محفورة على بعضها وصعبة القراءة من بعيد .

سمعت عندها صوت السجَّان يغنِّي في الخارج لحناً ما ويخلد للصمت . قال الثالث بنعاس ولا مبالاة : «هذا السجان يهودي عراقي . أعتقد أنَّه لا يقرأ ولا يكتب» .

وجلس على بطانية وضحك . «مزاجه متقلِّب وفيه شهوانية . طيب في حدود وسيئ في حدود . في الحقيقة كلُّ شيء فيه ضمن حدود . طيب على طريقته ، سجَّان على طريقته ، ويحبُّ الجميع إذا عاشوا على طريقته وحياته تمثيل في تمثيل . أحسُّ أنَّه يمثِّل دائماً : يمثِّل السلطة ، أو العصا والجزرة ، أو يمثِّل شيئاً ما بكل بساطة . من الصعب أن تعتقد في السجن أنَّ هنالك طيبة خالصة لوجه الله» .

لم أتكلَّم ، بل فضَّلت الصمت ، فمن الممكن أن يكون

المتكلِّم عصفوراً : العصافير جواسيس في غرف خاصَّة والضيف الجديد يوضع بين العصافير . نظرت للقمر والجبال بصمت . لا أدري ولكن في قلبي كانت جبال عالية ومقمرة ، أيضاً ، وفي أقصى جبل بعض كهوف مهجورة وأنا أحيا في كهف خاص منها .

أحياناً أشعل نيراناً في الباب لعلَّ ذلك إنساناً ضائعاً يعبد النار أو يبحث عن ملجأ فيراها . لكنَّني أغلق الباب بحجر لما أبصر ضبعاً أو عصفوراً وأحاول أن أحيا حياتي الخاصَّة في عزلة مظلمة ، أما في الليالي العادية فإنَّني أتجنَّب الاقتراب من الناس والحيوانات أكثر مما يجب ، أعني أنَّني شخص منعزل وحتى في الحب لا أسمح للفتيات بالاقتراب أكثر مما يجب . من أسميها بالحبيبة تجلس على تلَّة مقمرة في الواد بعيداً جداً عن كهفي وقلبي وأجلس قدام الكهف .

نادراً ما أنادي عليها لتصعد نحوي فتسميني صديقاً عندها . مرَّات كثيرة لا يكتفي الضبع أو العصفور بالتجوُّل في الواد فيدخل كهفي نتيجة لسوء تفاهم ما . عندها لا أشعر إلاّ بخطر مخيف على الحياة فأزحف

نحوه كالعنكبوت وألدغه لدغة قاتلة . أما الحبيبة فلم ألدغها أبداً : كنت أهملها أو أحتقرها أو أعيش كأنَّها غير موجودة حتى تخرج من تلقاء نفسها . هذه لدغة مختلفة . عندي آلاف الأنواع من اللدغات وبواسطتها حافظت على هذه المسافة بيني وبين العالم والنَّاس أو حافظ العالم والنَّاس على هذه المسافة . عشت في عزلة مطلقة ، في نوع غريب من أنواع الصحاري الروحية .

«لا أدري يا وطني

وكأنك غربة . . .

غربة . . .

غربة . . .» .

في السجن فقط ، دخل الجنود مسلَّحين للكهف فلم أستطع لدغهم من شدَّة الخوف ولا إخراجهم من شدَّة الضعف . ليست عندي لدغات جاهزة وطبيعية ضدَّهم . فتشوا كتبي من لينين حتى كنفاني وكلَّ شيء في حياتي ، وخلايا دماغي ، وكلَّ شيء . جلست على حجر في زاوية الكهف فاتحاً فمي وأضحك ضحكة هستيرية . تذكَّرت الآن : عندها فقط ، أحسست أنني

أتحوَّل إلى شخص آخر، إلى لوحة «فان كوخ» بصراصيري وبولي وفمي وغباري.

استدرت من الشبَّاك إلى العصفور الذي حاول هو، أيضاً، أن يتسلَّل للكهف ليصوِّره ويجمع المعلومات عن عالمي وذكرياتي. توقَّفت مذهولاً: لم أجد العصفور هناك، لا بطانيته ولا جسمه ولا شيء منه بالمرَّة، ولم أجد لوحة «فان كوخ»، أيضاً. حدَّقت في الشبَّاك وفي يدي ورجلي، كنت أبصر يدي اليمنى بالذات لأول مرَّة: طويلة وثقيلة وعليها شعر كثيف كأنها رجل حيوان أسود. كأنَّ جسمي ينتمي للعالم الخارجي ولا يربطني به رابط.

ماذا يحدث بالضبط معي؟ بدأت بتكنيس الغرفة بقدمي من الباب للزاوية الأولى فالثانية فالثالثة فالرابعة وبعدها كنست الوسط. إذاً اصطدمت بشيء فهذا هو الثالث أو لوحة «فان كوخ» حتماً. كنست حتى ضوء القمر ولم أصطدم بشيء ما عدا الباب والجدار. عرفت الباب من صوته والجدار من صلابته. وارتجفت، مجرد ذكرى ذلك تبعث رعشة في بدني حتى الآن.

شعرت أنني فقدت مفاتيح نفسي والسيطرة على مصيري كلِّه .

لم أستيقظ من هذا الكابوس إلاّ في زنزانة أخرى أشد ظلمة وقساوة وكنت ضائعاً . عند بابها جندية سمينة خلعت عنِّي ملابسي الماضية وسلَّمتني «أوفرهولاً» كالحاً وقديماً ولم يغسل من قرون طويلة وبلا لون فوق ذلك . عليه وضعت قطعة معدينة مثلثة : «السجين رقم ٢١٠٨» . شعرت فيه أنَّه لم يبق شيء لي وكل ما كنت أعتبره جزءاً مني اختفى في تلك اللحظة : الاسم والملابس والقدرة ، أيضاً ، عليّ تمييز من أنا . رائحته نتنة ولكن تعوَّدت عليها باعتبارها رائحتي الخاصَّة المميزة . على أكمامه بقع دماء باهتة وكأنه استعمل في جريمة سابقة ودون أزرار فوق ذلك . كانت الريح بالذات باردة تصفح الوجه وتعريَّت تماماً في البرد . ليس برداً بالضبط ولكن مزيجاً من البرد والإحساس أنَّ جلدي دخل مرحلة خيانتي وتعذيبي مثلهم تماماً . تسلمت ، أيضاً ، بطانيتين من المطاط ولا فرق بين النوم على المطاط أو الأرض . ودخلت حيث العالم الخارجي

ذكرى والداخلي متاهة .

في سقف الزنزانة الجديدة ضوء صامت يغمر الوجه واليدين والشعر بلون شبحي كالح الاصفرار تمتصهُ جدران عارية مطلية بالكلس الأصفر . إحساس بالغثيان والقرف والمرض، ليل أصفر ودقائق صفراء وجدار أصفر ومغلق . زمن ثقيل سرعان ما فقدت الإحساس به وأنا أجلس محدِّقاً في السقف أو بقع الدم فوق «الأوفرهول» أو اللاشيء فقط .

وتمنَّيت الموت أو بداية التحقيق لكي يتغير شيء ما في هذا الرعب الأصفر ولكن عبثاً، كانت الحالة محتملة في البداية ، كنت أسمع غناء المقيمين في المقابر المجاورة : ضجيجاً أو ضرباً على الجدران وأحياناً كنت أغنِّي لهم . ولكن اختفى الآخرون بالتدريج وانحسر الضرب والغناء ببطء حتى اقترب من الهمس . وأخيراً لم يعد حولي أو معي غير صمت ثقيل وقاتل ولا يتحرَّك فيه سوى ظلِّي فوق الجدران . حدَّقت طويلاً في الجدار ، طويلاً جداً ، حتى ارتسم وجه أمي فوقه بحدَّة خاصة . كان حزيناً وصامتاً يتماوج فوق مرآة من

اليأس ، وتمنيت لو أرجع طفلاً في حضنها حتى أنام وأنسى كلّ ما عشته في الحياة ، كل ما عشته ، كله ! .
هززت رأسي منكمشاً في الزاوية كمن يطرد ذبابة ، في قلبي مرآة دائرية وصغيرة تلمع صافية فوق جدار أصفر . شيء مريح وبعيد يشدُّني إليها مهما حاولت تجنبه .

«حدقت في المرآة
شيء قال لي : من كان نصف ميت فليمت كلياً
فالحياة ليست لعبة
والحنين ليس خداع ذات .
آه يا حبيبي ! هل تدرك معي لهذه الكلمات ؟» .

مرّت هذه القصيدة في ذاكرتي مهترئة ونصف منسية . جسمي كتلة مخاطية تزحف تحت ثقلها الخاص . وهززت رأسي ثانية . نعاس وخدر في كلّ شيء . حاولت النهوض فلم أستطع . شعرت أنّ رجلي من الرماد ويمكن أن تتناثر تحت الضوء وتبقى الجثة جالسة في الزاوية بلا رأس . لقد دخل الجسد بأكمله في مرحلة خيانتك وستفقد كلّ شيء عما قريب . ستفقد

كلَّ شيء ، ستخلع كلَّ قشورك قشرة قشرة كالبصلة فلا تعثر على البصلة ، بل ستفوح رائحة العدم الروحي فيك وتلك قشرتك الأخيرة . ستتعفّن وحيداً ولن يدري عنك أحد . سوف يمتصك السجن مثلما تمتص القطنة نقطة من القيح والدم لأنَّ رائحة ذاتك كريهة .

هل تذكر كيف كانت السماء زرقاء والماء ينساب نقياً بين حصى الأودية والشمس ربيعية ودافئة في الصباح ، كيف تعرّيت فوق زهور حمراء وصفراء بين طنين النحل وكيف ألقيت نفسك في بركة باردة مثلما جلبتك أمُّك ، كيف حلمت بفتاة جميلة تتعرّى معك فتلمع حبات الندى فوق عانتها «قطرتان من الظل في قطرتين من الضوء في قطرة من ندى ، فتنتفض الكائنات الصغيرة والطحلب في الماء من الشهوة والحرية؟» .

لم يأت أحد وبقيت وحدك حتى غابت الشمس في برد المساء .

كنت طفلاً أيامها ومرَّت السنون وأنت تنتظر الذي لا يجيء ، هل تذكر لما تجولّت في شمس فندق من الزجاج الأسمر قرب البحر فتخيَّلت حريقاً يندلع فيه

ويزدحم الناس فوق الأرصفة ، ويحدّقون في فتاة معلقة على البلكون تحت الدخان ، بأنك تنقذها والأفواه مفتوحة دهشة وتوقُّعات؟ حلمت دائماً هكذا، حلمت بالتضحية بنفسك من أجل هدف ما ، أي هدف ، ولكن ليس لأنك أحببت البحر والنساء والحياة ، بل لأنَّ في قلبك مرآة دائرية تهمس لك دائماً أنك ميت وفارغ مثل الطيور في الأدغال ، حاولت التضحية بنفسك لأنك لا شيء وتحاول أن تكون شيئاً ما ، بطلاً يرقص الفقراء على صوت طبوله الذهبية ، لم تولد في الزمن المناسب ولم تعش بالشكل المناسب . أنت فارغ وجبان وبلا قيمة ولا شخصية ، انتحر الآن دون خوف ولا تفكير فالموت الفارغ نهاية لحياة فارغة ، والرعب منه دليل على أنَّك واصلت خيانة الحياة حتى آخر لحظة فيها ! دائماً كنت خائناً للحياة حتى عندما حاولت التضحية بنفسك من أجل شيء ما ، أي شيء ، كان من الأفضل أن تنتهي في زقاق مهجور بلا نحيب ولا ضجَّة فلست مهماً لأحد ولا حتى لنفسك !

وألقيت رأسي للخلف ، فنام على الجدار ، اغمضت

عيني بيأس وبكيت . . . كنت أكره الضعف والبكاء من الضعف ولكن . . . على أية حال بكيت .

حدَّقت في الضوء الأصفر والصمت طويلاً جداً ، حدَّقت طويلاً وأرخيت العنان للخيال : حصان الحرية ، وازددت ضعفاً ونعاساً بمرور الساعات ، وفي ذاكرتي تعبر أشياء . . صور . . لا يربطها شيء ، وأخيراً مرَّت جبال من النحاس مغطاة بأشجار الخريف الصفراء والحمراء والخضراء والبرتقالية تحت شمس حريرية : لوحة من أجمل ما يمرُّ في الرؤى . معابد صينية ويابانية لها أبراج تشبه أجنحة من الشفق ، وترتفع كالدهشة في سماء زرقاء حالمة ، أحد الرعاة يصفِّر لحناً موسيقياً ، وتلمع تحت الشمس في الفضاء طيور خضراء .

تحولت بفرح بين تماثيل من الحديد لنساء عاريات في برك مياه تطفو فيها أوراق الشجر ملوَّنة ، وصلت إلى معبد في مدخله كاهن يلبس صندلاً وعباءة برتقالية ، وقميصاً أزرق ووجهاً أخضر خضرة داكنة ، سألته أين أجمل مكان للسكن ؟ جلس على حجر وأطرق قليلاً

ثم قال بصوت بطيء وهادئ : أجمل الأمكنة يا ولدي قوس قزح حيث تحيا برتقالياً أو أبيض أو أزرق ، كيفما تشاء ، تتعرَّف في الأرانب البرية على أخوة لك ، وفي هدير البحر تحت الشمس ، وفي النجوم على مدى جمال الإنسانية القادمة . عندها ستولد حراً وعالياً ودائرياً مثل قوس قزح ، فتحيا ناعماً كرذاذ المطر ، وتمضي ملوَّناً كالخريف! عندها ستعود الحياة للتماثيل الحديدية التي تجمدت من صقيعية عزلتك عنها طوال هذه السنوات! عندها لن تهرب يا ولدي رعباً قدام البحر الهائج ، بل ستغتسل فيه فيعانقك البحر كالأب ، واقفاً على قدميه ويرفع احتراماً لإنسانيتك قبعته الزبدية ، اذهب فأنت محكوم بالمعاناة ما دام الإنسان لم يعثر على نفسه : حتى يجيء ذلك العصر الذهبي أنا ، أيضاً ، سأفكِّر فيك !» .

سألته لماذا ترهَّب بين النحاس والخريف فقال : «عثرت هنا على وطني الحقيقي! سأدفن فيه بالأوراق الساقطة حول المعبد ، وأبقى على صلة بقانون الحياة : لا تستمر حياتنا يا ولدي دون سقوط الكثير من الورق ،

والسقوط الذي يفسح المجال للجديد يكون ملوناً دائماً، أصفر أو أخضر أو برتقالياً، ويعطي جمالاً خارقاً لمعابد الأبدية وكهنتها».

أحببت حديثه وتجاربه، فسألته أن يحدثني عن طفولته لأن طفولتي تعذَّبت أكثر مما يجب، فقل الكاهن الأبدي : «ولدت يا ولدي في غابات الأمازون، وحول طفولتي عشرة ملايين كيلو متر مربع من الأدغال والأشجار البدائية الخضراء. هذا هو كل شيء، لعبت بقرب شلالات تتساقط في العزلة، وأنهار خضراء وصفراء وشقراء تنعكس شمس الغروب عليها، وترى عندها في الأفق مدينة من غبار الذهب وفي الأرض جنَّة ملوَّنة، هذه هي «ألدورادو» : فردوس الهنود المفقود».

واعلم يا ولدي أنَّني لم أقرأ في حياتي إلا أساطير «ألدورادو». [لكلِّ شعب يا ولدي فردوسه المفقود الخاص به، ولكل واحد منا فردوسه المفقود الخاص به، ولكلِّ فردوس أساطيره الخاصَّة]، ولكن يا ولدي لم أحلم إلا «بألدورادو» الإنسانية بأكملها. هذا

«الألدورادو» وحده يستحقُّ العيش لأجله والبحث عنه. بنيت قارباً من الألياف وصرت أجدِّف في الأنهار الملوَّنة حتى تغرب الشمس، لا نهايات من الماء والقصب ترحل كالأحلام بعيداً تحت أشعة الغروب مثل مرج منبسط لا حد له. تغفو الضفاف والأرض، ولا يتحرَّك إلاّ سرب من البط تحت مظلَّة من نقنقة الضفادع ولون الشفق الأزلي.

كلُّ شيء هادئ والقارب يمشي وحده. وفجأة ترتفع من أعماق الأرض والماء مدينة من غبار الذهب المصحون كأنها شبكة صياد كوني. ترتفع رويداً رويداً مع خرير سيمفونية غامضة، وتتماوج مثل منديل من الدهشة طرزّت عليه الإنسانية أحلامها منذ العصر الحجري حتى الآن، وتقف بعيداً على طول الآفاق الذهبية. اذهب يا ولدي فالوقت متأخِّر والحياة دون أحلام مخيفة!».

واستيقظت على المفاتيح تدور على نفسها في القفل، وعلى الضوء الأصفر حولي. دخل جندي يحمل دفتراً قيّد اسمي عليه وقيدني ودفعني للخارج. عبر بي

ساحة من الأسلاك الشائكة في اتجاه بناية التحقيق :
السماء بيضاء في عزِّ الظهيرة ، والحر خانق ، وذباب
على الأرض فوق قطعة خبز . لمحت الشارع لفترة
قصيرة . شيء مريح في حدِّ ذاته إن ألمح الشارع .
صعدت على درج معتم وطويل وفيه رائحة الرطوبة ،
وفي أقصاه بناية التحقيق : خليط من المكاتب
والزنازين. دفع بي في زنزانة تطايرت المخاوف في
عتمتها ولطمت وجهي كالوطواط ، وانغلق خلفي
باب ثقيل من حديد بارد ، جدرانها خشنة وتجرح الجلد
من شدَّة غربتها عنه . رطبة وتهرب فيها دقائق العمر
مثل الصراصير السوداء خارجة من الفم حتى تركض
في كلِّ اتجاه على أرضية نتنة من البراز والبول والخوف .
صرت حيواناً مذعوراً حيث لا توجد أية خدمات على
وجه الإطلاق .
تجمَّدت برداً ونعاساً ولم أستطع اليقظة أحياناً ، وأحياناً
كنت أمشي حتى يتحرَّك الدم في ولكن عبثاً . مرَّت
أزمنة تلبّسني فيها الإحساس أنني نُسيت هنا للأبد ،
من الممكن أن أتعفن أو أتشوَّه دون أن يدري أحد . قد

يأتي جندي مجنون ويطلق النار عليَّ بكلِّ بساطة : كلُّ شيء جائز وممكن تحت هذا الدرج ، تصفيات كثيرة حدثت «بهذه الطريقة . ومرَّت في ذاكرتي جنازات لا حصر لها لمن خرجوا موتى ودفنوا ليلاً في المقابر والمدينة نائمة بحضور الجنود والكلاب فقط . جاء ضابط وناولني قطعة خبز عليها مادة لم أذق مثلها في حياتي . قلت له : إنني هنا فلم يجب وأغلق الكوة من جديد . ما زلت أذكر الساعة الواحدة ليلاً لما ابتدأت رحلة التحقيق . علَّقوني في زنزانة في درج ضيق بين سقف يبعد عن رأسي عدة سنتمترات ، وبول وبراز تغرق فيه قدمي العارية ، ويبعد عن مؤخرتي مسافة أقل . والخطوات العسكرية تعبر فوق الدرج بين الفينة والأخرى . كنت مرهقاً وأرتجف برداً وأنتظر الخطوات برعب وأشعر بالأحذية تمشي في رأسي . تذكرت زنزانة إسبانية يقيِّدون السجين فيها من وضع ثابت ، وطوال الليل تنقط نقطة ماء فوق رأسه بالضبط ، وفي المكان نفسه بين اللحظة والأخرى . وبعدها ينتظر السجين القطرة وكأنَّها مطرقة ، وصدى كلُّ قطرة تردِّده

قاعات فارغة ومظلمة في الوعي . وأخيراً أطبق صمت
وسمعت صوت جَلْد بالسياط وصراخ وتوجّع مطلق .
لا أدري إن كان تسجيلاً أم حقيقة لمن مجرد ذكراه تبعث
في جسدي رعشة حتى الآن . ومررت في عالم لم
أختر شيئاً من طقوسه ومراسيمه : كيس من النايلون
فيه صمَّام هواء يفتح من الخارج . دخلت فيه وأغلقوا
الصمَّام عليَّ . فتحت فمي واتسعت عيناي بلا حدود
ومرَّت كلُ حياتي مثل شريط بعيد ولكن بسرعة خارقة
وفقدت الوعي .
واستيقظت على ماء بارد فوق وجهي وشعري ، ثم
وضع رأسي في المرحاض حتى فقدت الوعي ثانية ،
ثمَّ رميت في حمام صقيعي حتى ارتعشت كالمصاب
بالصرع ، ثمَّ بقرب النَّار حتى طلعت روحي من شدَّة
الحر ، ثمَّ للحمام ، ثمَّ للكيس ، ثمَّ للمرحاض ، حتى
أحسست أن جلدي يتعفَّن مع رأسي .
قصة طويلة ومملَّة . قضيت ثمانين يوماً في زنازين
مختلفة ، رأيت خير عقول هذا الجيل تصاب بالصرع
وانفصام الشخصية والجنون ، ورأيت سنين العمر

تسيل كالقيح على أسياخ الجلد الحديدية وفي جبال الشيخ ، وأخصائيين في تعذيب كلّ شيء حتى الرموش والخصيتين ، ومن حرقت صدورهم بحامض الكبريتيك ، ومن ماتوا ، ومن اختطفوا ورأيت ، أيضاً ، من صمدوا . قصة طويلة ومملّة وأحفظها عن ظهر قلب . حتى السجون التي شهدت هذه الكوابيس صارت ذائعة الصيت : نفحة ونابلس وصرفند وغيرها . الوطنيون يسمّونها المدارس ، والأبرياء يسمونها المسالخ ، والجواسيس يسمّونها الإدارة المدنية ، ولكن لن يفهمها أحد قبل أن يدخلها ولن ينساها أحد ممن يخرج منها .

المهم أنني نقلت إلى زنزانة فيها سجناء آخرون وأمامها ساحة من الإسمنت . سمعت صوت المفاتيح الغريب وهي تضرب ببعضها وانفتح الباب فانتظرت أن يفتح الضابط شفتيه بخوف . وقف طويلاً ولم يتكلّم . «تعال» قال أخيراً . «لم تر شيئاً بعد !» وأمسك بشعري من الخلف وهز السجناء رؤوسهم مشجعين . شعرت أنّ كلّ ما مضى سوف يتكرّر مرة أخرى من جديد . كلّ

شيء جائز . سلَّمني ملابسي القديمة أمام مقعد طويل في دهليز مضاء . بدّلت ملابسي ووقفت في انتظاره وهو خلف المكتب يرتب شيئاً ما . نظر فجأة فاتحاً درجاً حديدياً :

- «ماذا تنتظر ؟»

- «لا شيء» .

- «انصرف طيب» .

خرجت حائراً . نزلت الدرج وخرجت من الباب ولم يمنعني أحد . شمس ! شمس بيضاء كالورق وتؤذي العينين وساحة ملتهبة كالمرآة أمامي . عبرتها وفركت عيني عدَّة مرَّات . أصوات بعيدة وغريبة . إسفلت طويل ومنحدر فوقه ظلال الصنوبر وحوله أسلاك شائكة . لمعت سيارة حمراء مسرعة في آخره . استدرت يساراً . دكان أحذية نسائية تأملتها باستغراب ، فتاة تحمل حقيبة سمراء وتسرع ببنطلونها الأصفر . صدمت شخصاً فتأفف في وجهي . كأن جميع العيون تحدِّق في شكلي ورأسي الحليق .

الشمس حارة وسال العرق على وجهي فمسحته بكم

القميص . كلُّ شيء يتحرَّك بسرعة مذهلة وفي كل اتجاه ، الأصوات والناس والسيارات . بلكونات عالية والزجاج عليه غبار ولا ينظر نحوها أحد . وقفت فجأة ونظرت للشارع كله . ابتسمت بعمق وسعادة ثمَّ هززت رأسي وغرقت في الشارع مثل بقية الناس .

- كيف تعود منتصراً إلى البيت ؟

- حين تظفر برواية ، بهذي الرواية ...!

2/9/2015

غربة غريبة تنضنضُ مثلَ لسانِ الأفعى .. فيسري ناقعها في براحِ الروحِ وحديقةِ الجسدِ المفتوحةِ على الرياحِ المرّةِ والليلِ الكظيمْ .. تلكَ غربةُ حسين البرغوثي في منفاه الاختياري .. أيام الدراسة وليل الوجع .. وزرقةِ (الدانوبِ) اللافحةِ .. والماضي بنثيثهِ الراشحِ حزناً وخسارةً وشجراً وهمياً .. والمنفى ناغرية الوطن ..

في «الضفة الثالثة لنهر الأردن» الكلام على أشدّه مشدوداً مثلَ شبكةِ تنس .. الضياعُ في المدن الكبرى .. العيش بكلِّ ما لديكَ من قدرةٍ على الحياة .. الاغترابُ الليليُّ جوهرُ التجربةِ ونقطة ارتكازها التأملُ .. القراءة بدأبِ نملة .. الصداقاتُ وبعضها خلّبٌ، الحبّ جارفاً .. ذلكَ زمانٌ يستحقّ العيشَ فيه .. قال المعلّم ..

بعد اثنتي عشرة عاماً على صدور هذه الرواية .. سيداتي سادتي تعبركم هذه التجربة الاستثنائية لكاتبٍ مختلف .. بحميمية لاذعةٍ كاوية وقدرةٍ على الرؤيا الأكيدة.

(1984): صدرت هذه الروايا بعوالمها الجوّانية وبوحها الكاوي.. متجاوزة بذلك الإبداع المحلّي والعربي ، لتنزاح نحو ما هو إنساني .. ما جعل المعلم يحقق ريادة وتفرداً وتميّزاً .. الرواية ، تخطّت زمكانها بعبقرية فذّة لعقل فذّ وبصيرة رائية نافذة.

الماطر

مراد السوداني

